

صور من بنائها وأحوالها

1426هـ - 2005م

النفس المسلمة

صور من بنائها وأحوالها

غازي التوبة


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلّ له، ومن يُضْلِل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، ﴿**يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ ولا تَموتُنَّ إلا وأنتم مُسْلِمونَ**﴾ (آل عمران،102)، ﴿**يا أيّها الناسُ اتّقوا ربَّكُم الذي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ واحِدَةٍ وخلق منها زَوْجها وبَثَّ منهُما رجالاً كثيراً ونِساءً واتّقوا اللهَ الذي تَساءَلونَ بهِ والأرحامَ إنّ اللهَ كان عليكُم رقيباً**﴾ (النساء،1)، ﴿**يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا اللهَ وقولوا قَوْلاً سديداً يُصْلِحْ لكم أعمالَكُم ويغفرْ لكُم ذُنوبَكُم ومَن يُطِعِ اللهَ ورسولَهُ فقد فازَ فَوْزاً عظيماً**﴾ (الأحزاب،70-71)، أما بعد: فإنّ أصدق الحديث كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشرّ الأمور مُحْدَثاتها، وكل مُحْدَثة بِدعة، وكل بِدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. أمّا بعد:

الجانب النفسي والقلبي جانب مهم في حياة الإنسان، وقد عالج الإسلام هذا الجانب معالجة حكيمة وعميقة، وقد استندت هذه المعالجة على تصوّر محدّد للنفس الإنسانية وضّحه القرآن الكريم والسنّة المشرّفة، وقد استهدفت معالجات الإسلام لهذا الجانب النفسي والقلبي سعادة الإنسان في الدنيا وفوزه بالجنّة في الآخرة. أغنى العلماء المسلمون

هذا الجانب على مدار التاريخ الإسلامي برُؤى متنوّعة، وآراء سديدة، وتجارب عميقة، ودحضوا كثيراً من الدَّخَن الذي جاء عن طريق الفلسفة اليونانية أو عن طريق التصوّف الهندي أو الفارسي الذي يقوم على الحلول أو الاتحاد أو وحدة الوجود، وقد ساهم في ذلك أحمد بين حنبل في تدوين "كتاب الزهد" الذي أراد بن أن يؤسّس لعلم قلبي إسلامي وليواجه بدايات التصوّف التي كان قد عاصر نشوءها، وتابعه بعد ذلك ابن تيمية في رسالة "العبودية"، وابن القيّم في كتاب "مدارج السالكين" إلخ...

وكنت قد كتبت مجموعة من القالات حول هذا الجانب المهمّ، وزاد اهتمامي بهذا الجانب عندما رأيت عدداً من الكتّاب والباحثين الإسلاميين يتجهون إلى معالجة النفس وبنائها عن طريق "البرمجة العصبية اللغوية"، وعن طريق "الريكي"، وعن طريق "الطاقة"، وعن طريق "التنويم المغناطيسي"إلخ...، وهي معالجات غير مجدية لأنها مستندة إلى ثقافات غير ثقافاتنا، في حين أنّ معالجات الإسلام تقوم على أصول اعتقادية وإيمانية قريبة لنا محيطة بنا: بعضها من عالم الغيب وبعضها الآخر من عالم الشهادة، إذ لا يمكن أن تشعر النفس بالسعادة، وتحسّ بالاطمئنان إلا من خلال تعبيد ذاتها لله، ومن خلال الإيمان بأنّ هناك جنّة وبأنّ هناك ناراً، وبأنّ هناك ملائكة، وبأنّ هناك رسلاً وكتباً إلخ...، وكل حقيقة من الحقائق السابقة لها دورها في توجيه

طاقات الإنسان من حبّ وخوف ورجاء وتعظيم وخضوع، فهو يتجه إلى الله بالتعظيم والخضوع له -تعالى- لأنه الخالق البارئ المصوّر إلخ...، ويتجه إليه -تعالى- بالحبّ لأنه الوهّاب المعطي الكريم إلخ...، ويتجه إليه -تعالى- بالخوف لكي يجنّبه النار التي أعدّها للعاصين والكافرين، ويتجه إليه -تعالى- بالرجاء لكي يدخله الجنّة التي فيها ما لا عين رأت ولا أُذُن سمعت ولا خطر على قلب بشر إلخ...، وهو يعظّم كتب الله يحبّها لأنّ فيها الهداية، وهو يطيع رسل الله ويقدّرهم لأنهم تحمّلوا مختلف أنواع المصاعب من أجل إيصال الحقّ إليه إلخ...

وقد قسّمت الكتاب إلى بابين:

الباب الأول: صور من بناء النفس المسلمة.
الباب الثاني: صور من حالات النفس المسلمة.

وقد احتوى الباب الأول أربعة فصول تناولت في الفصل الأول "دور البناء النفسي للصحابة في إنجاح تطبيق الشريعة في المدينة" وقد أوضحت في هذا الفصل أنّ الإسلام بنى الصحابي بناء نفسياً خاصاً، هذا البناء النفسي هو الركيزة التي جعلت الأوامر الشرعية نافذة، فعندما نزلت الأوامر الشرعية بتحريم الخمر، أو بارتداء الحجاب كانت الاستجابة سريعة وكاملة وذلك بسبب امتلاء نفوس الصحابة ﴿رضي الله عنهم﴾ بتعظيم أوامر الله تعالى، وخضوعهم لأحكامه تعالى، وحبّهم لله تعالى

أكثر من حبّهم لشهواتهم، وخوفهم من نار الله تعالى في حال العصيان، ورجائهم في الجنّة في حال الطاعة.

ثم بيّنت في الفصل الثاني "دور القرآن الكريم والسنّة المشرّفة في البناء النفسي للمسلم"، ثم انتقلت إلى موضوع آكثر خصوصاً في الفصل الثالث وهو "دور شهر رمضان في البناء النفسي للمسلم"، فوضّحت الأمور التي يبنيها هذا الشهر في نفس المسلم.

ثم انتقلت في الفصل الرابع من هذا الباب إلى موضوع تحت عنوان "أزمة المسلم المعاصر النفسية: أبعاد وحقائق" فوضّحت أبعاد هذه الأزمة في فرعين: العقيدة والفقه، وأجريت مقارنة بين دور العقيدة في البناء النفسي للمسلم حسب الطرح القرآني وبين دورها حسب طرح كتاب جوهرة التوحيد للباجوري، وكما أجريت مقارنة بين دور العبادات في البناء النفسي للمسلم حسب التصوّر القرآني، وبين دورها حسب طرح "كتاب الفقه على المذاهب الأربعة" وتوصّلت إلى أنّ أزمة البناء النفسي للمسلم المعاصر يعود في جانب منه إلى مضمون هذه الكتب وطرقها في تناول القضايا العقائدية والفقهيه.

ثم جاء في الباب الثاني من هذا الكتاب تحت عنوان "صور من حالات النفس المسلمة" وقد احتوى على خمسة فصول، تناولت في الفصل الأول العوامل التي تولّد الصحّة النفسية، ثم تحدّثت في الفصل

الثاني عن كيفية تحوّل النفس المسلمة إلى الإيجابية والفاعلية، كما تحدّثت في الفصل الثالث عن كيفية تحقيق السعادة، ثم تحدّثت في الفصلين الرابع والخامس عن كيفية معالجة الإسلام للقلق، وعن كيفية التغلّب على الحزن.

آمل أن أكون قد هُديت إلى الصواب فيما كتبت، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

كتبه
غازي التوبة
altawbah@al-ommah.org

الثلاثاء 2 من ربيع الآخر 1426هـ
الموافق 11 من آيار (مايو) 2005م

الباب الأول

صور من بناء النفس المسلمة

الفصل الأول

دور البناء النفسي للصحابة في إنجاح تطبيق الشريعة في المدينة

عندما انتقل الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة واجهته مشاكل متعددة، ومن أوّل المشاكل التي واجهته التفاوت الاقتصادي بين فئتي مجتمع المدينة: المهاجرين والأنصار، ووجود عادات متأصلة مثل شرب الخمر، وصعوبة إحلال قيم جديدة مرتبطة بالأمة محل قيم قديمة مرتبطة بالقبيلة، فكيف حلّ الرسول ﷺ هذه المشاكل؟ وكيف تصرف الصحابي إزاء أوامر الرسول ﷺ ؟ وما البناء النفسي الذي حكم تصرفاته في تلك الآونة؟

التفاوت الاقتصادي بين المهاجرين والأنصار:

عندما هاجر الصحابة من مكة إلى المدينة تركوا أموالهم فيها، فأصبحت المدينة تحتوي فئتين: المهاجرين لا يملكون شيئاً، والأنصار يملكون كل شيء، فكيف تصرّف الرسول ﷺ إزاء هذا التفاوت الاقتصادي؟ آخى بين فئتي المجتمع، فاتخذ كل مهاجر أخاً أنصارياً له وتقاسما بينهما ما يملكه الثاني، فقد نقلت الروايات أن الرسول ﷺ

آخى بين عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع فقال سعد لعبدالرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم مالي إلى نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك، فسمّها لي أطلقها، فإذا انقضت عدّتها، قال عبدالرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدو. (صحيح البخاري ، باب كيف آخى الرسول ﷺ بين أصحابه).

لا شك أن استجابة الصحابة العميقة لنداء الرسول ﷺ التي جعلتهم يتنازلون عن نصف أموالهم وعن زوجاتهم في بعض الحالات منبثقة من امتلاء واغتناء نفسيين يمكن أن نستشف معالمهما في العناصر التالية:

- تعظيم الصحابة لأمر الله والرسول في الإنفاق والخضوع له تعالى، وليس الخضوع لشهوة حب المال واكتنازه والبخل به.
- رجاء الصحابة الجنة في حال اقتسام الأموال مع إخوانهم، وخوفهم النار في حال البخل وعدم التضحية بالمال.
- حب الصحابة لله تعالى ولرسوله أكثر من حب المال.

ربيع ثان– ثقة الصحابة في قيادة محمد ﷺ وبوعد الله في إخلاف المال المنفق.

تحريم الخمر:

كان شرب الخمر عادة متأصلة في المجتمع الجاهلي، وتدرج الإسلام في تحريمها فأنزل في البداية قوله تعالى: ﴿**ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً**﴾ (سورة النحل ، رجب جمادى ثان). ثم بيّن الله تعالى أن إثم الخمر أكثر من منفعته فقال تعالى: ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما**﴾ (البقرة ، رمضان محرم صفر). ثم نهى الله المؤمنين أن يقربوا الصلاة وهم سكارى فقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون**﴾ (النساء، ربيع أول ربيع ثان). ثم حرّم الخمر فقال تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون؟**﴾ (المائدة، شوال رمضان – محرم رمضان).

فماذا فعل الصحابة عندما نزل أمر الله تعالى بتحريم الخمر؟ نقلت إحدى الروايات فذكرت أن ثابت بن أنس قال: كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة قال: فنزل في تحريم الخمر، قال: فأمر منادياً فنادى فقال أبوطلحة: اخرج فانظر ما هذا، فخرجت فقلت: هذا مناد ينادي ألا إن الخمر قد حرّمت. فقال لي: اذهب فأهرقها، فجرت في سكك المدينة، قال وكانت خمرهم يومئذ الفضيخ. (سنن الدارمي ، كتاب الأشربة ، الباب الثاني).

إذن كانت استجابة الصحابة لتحريم الخمر استجابة فورية وشاملة، وقد جاءت هذه الاستجابة نتيجة امتلاء واغتناء نفسيين، ويمكن أن نبرز معالم هذا الامتلاء والاغتناء في العناصر التالية:

مُحَرَّمٌ– تعظيم الصحابة أمر الله في تحريم الخمر وتنفيذه، وعدم خضوعهم لشهوة شربها.

صَفَرٌ– حب الصحابة لله تعالى، وتقديمهم حبه تعالى على حب الخمر.

رَبِيعٌ أَوَّل– رجاء الصحابة الفوز بالجنة لتحريمهم الخمر، وخوفهم من عقاب الله تعالى في حال العصيان.

ربيع ثانٍ– ثقة الصحابة بالمنهج الإسلامي الذي حرّم الخمر، ويقينهم أن تحريمها يعود عليهم بالخير كأفراد وجماعة.

ليس من شك في أن بناء الصحابة النفسي الممتلئ بالله تعظيماً وخضوعاً وحباً وخوفاً ورجاء كان عاملاً رئيسياً وراء نجاح الرسول ﷺ في تحريم الخمر، في حين أن افتقاد أمريكا ذلك الامتلاء النفسي كان عاملاً رئيسياً وراء فشلها في تحريم الخمر في مطلع القرن العشرين.

الأمر بالحجاب:

نزل الأمر الإلهي بالحجاب فقال تعالى: ﴿**يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً**﴾ (الاحزاب، رمضان جمادى اول).

وأنـــزل

-تعالى- الأمر بالضرب على الجيوب فقال: ﴿**وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن...**﴾ (النور، محرم ربيع اول).

فكيف كانت استجابة المجتمع الإسلامي لهذا الأمر الإلهي؟

يوضح ذلك الحديث الذي رواه البخاري والذي قالت عائشة رضي الله عنها فيه: "رحم الله نساء المهاجرات الأُوَل لما نزل ﴿**وليضربن بخمرهن على جيوبهن**﴾ شققن أزرهنّ فاختمرن بها".

إن استجابة الصحابيات لأمر الله بالاختمار والحجاب كانت سريعة وشاملة، فقد شقّت الصحابيات بعض ثيابهن من أجل تحقيق الأمر الإلهي في الاختمار وستر الجيوب، ولم ينتظرن حتى يُهيّئن للأمر عدته الخاصة، ويدل هذا على اغتناء الصحابيات النفسي، ويمكن أن نستشف معالم هذا الاغتناء في الأمور التالية:

مُحَرَّمٌ- تعظيم الصحابيات لأمر الله بالحجاب، والخضوع لذلك الأمر بشق الثياب والاختمار بها.

صَفَرٌ- رجاء الصحابيات الجنة بتنفيذ أمر الله بالحجاب، وخوف النار عند عدم الالتزام به.

رَبِيعٌ أوَّل- ثقة الصحابيات بالمنهج الإسلامي ويقينهن بأن الحجاب خير لهن ولأمتهن.

والآن على ضوء الوقائع الثلاث السابقة التي تجلّت فيها استجابة الصحابة العميقة والشاملة لأوامر الشريعة والتي دلّت على

اغتنـائهم النفسـي الـذي أدى إلى نجـاح الرسـول ﷺ في بنـاء الأمـة وفي تطبيـق الشـريعة في المدينـة، والسـؤال الـذي يمكـن أن يـرد في هـذا المقـام: من أين جاء هذا الاغتناء النفسي؟ وما الذي ولّده؟

ولدته العقيدة التي طرحها القرآن الكريم في مكة والتي تقوم على الإيمان بالله واليوم الآخر. فقد بيّن القرآن الكريم والحديث الشريف أن الله –تعالى– خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وأنه خلق آدم من تـراب، وأنـه خلـق الملائكـة مـن نـور، وأنـه يعلـم السـرّ وأخفـى، وأنـه لا تأخـذه سـنة ولا نـوم، وأنـه يـدبر الأمـر مـن السـماء إلى الأرض ثم يعـرج إليه في يوم كـان مقـداره ألـف سنة، وأن جميع المخلوقـات تخضـع لأمـره تعـالى، وأنـه قيّـوم عليهـا إلخ... عنـدما يـؤمن المسـلم بـالله –تعـالى– بالصـورة الـتي طرحهـا القـرآن الكـريم وبيّنهـا الرسـول ﷺ فـلا شـك أنـه سيعظّم الله تعالى، ويتجه إليه بالخضوع وحده تعالى.

وعنـدما يـؤمن المسـلم بـأن الله –تعـالى– خلـق الأرض ذلـولاً مـن أجـل النـاس، وأنـه سـخّر لهـم الشـمس والقمـر، وأنـه فصّـل الليـل والنهـار من أجل أن يعملوا في النهـار ويسـكنوا في الليل، وأنه سـخّر لهـم الأنعـام والـدوّاب مـن أجـل أن يمتطوهـا ويـأكلوا لحمهـا، وأنـه سـخّر الريـاح وأنـزل

الماء من السماء لينبت به نبات الأرض الذي يستمتعون بمنظره وبالطعام منه، عندما يؤمن بكل ذلك يتجه بالحب إلى الله تعالى.

وعندما يؤمن المسلم بأن هناك بعثاً وحساباً وأن هناك جنة وناراً: الجنة فيها نعيم لا يمكن أن يُقارن بأي نعيم في الدنيا، والنار وقودها الناس والحجارة، ليس من شك بأنه عندما يؤمن بهذا سيتجه إلى الإنفاق من مال الله الذي آتاه إياه ليقترب من الجنة ويبتعد عن النار، وسيتجه إلى الالتزام بأوامر الله ونواهيه التي تكسبه الأجر الذي يزيد من حسناته ويقلّل من سيئاته لكي يفوز بالجنة وينجو من النار.

هذه هي بعض معالم العقيدة التي بناها الرسول ﷺ في صحابته والتي كانت عاملاً رئيسياً في توليد اغتنائهم النفسي الذي أدى إلى إنجاح تطبيقات الشريعة في المدينة، ثم جاءت أركان الإسلام وأبرزها الصلاة والصوم والحج والزكاة والتي تبلورت تشريعاتها في المدينة لتستمر في إغناء كيان الصحابة النفسي، دافعة بهم إلى استشراف آيات الوحي الجديدة وإنفاذ أحكامها الشرعية، منتهية بهم إلى ترسيخ كيان المجتمع الإسلامي بقيمه الوليدة وصورته الفاعلة الحيّة.

فالصلاة التي يمتثل فيها المسلم أمر ربّه بالتطهر والقيام والركوع والسجود في أوقات محددة من الليل والنهار تبني تعظيم الله، والصوم الذي يمتنع فيها المسلم عن شهوة النساء والطعام والشراب في وقت محدد لا شك أنه يبني الخوف من عقاب الله تعالى والرجاء في ثوابه، والزكاة التي يُخرج فيها المسلم قسطاً من ماله في الوجوه التي أوجبها الشرع تبني حب الله تعالى لأنه يتخلى عن شئ يحبه وهو المال من أجل محبوب أعظم وهو الله تعالى. والحج الذي يقصد فيه المسلم بيت الله الحرام، متحملاً المشاق ومنفقاً الأموال يبني الخضوع لله تعالى.

الخلاصة: إن اغتناء الصحابة النفسي الذي استمد مادته من العقيدة الإسلامية هو الذي ساهم في إنجاح تطبيق التشريعات الإلهية في المدينة، ثم جاءت أركان الإسلام من صلاة وصيام وزكاة وحج لتعطي اغتناءهم النفسي مدداً مستمراً ساعدهم على الاستمرار في الالتزام بتنفيذ أوامر الشريعة وأداء واجباتهم الدينية في المراحل اللاحقة.

الفصل الثاني

دور القرآن الكريم والسنة المشرفة في البناء النفسي للمسلم

لقد قدّم المسلمون على مدار التاريخ تضحيات كبيرة من دمائهم وأموالهم، ويدل على ذلك كثرة المعارك التي خاضوها بدءاً من غزوة بدر والقادسية واليرموك ومروراً بحطين وعين جالوت والزلاّقة وانتهاء بفتح القسطنطينية وقرع أبواب فيينا، ويدل على ذلك أيضاً كثرة الأوقاف التي أوقفوها والتي بلغت ثلث ثروة العالم الإسلامي والتي شملت فائدتها الطفل الصغير والعبد الضعيف والدابة العجماء.

ليس من شك بأن هذه التضحيات الجلّى في مجال الدماء والأموال جاءت من اغتناء المسلم النفسي الذي ساهمت عدة مصادر شرعية في بنائه، أبرزها القرآن الكريم والسنة المشرفة، وهذا ما سأوضحه في هذه الدراسة.

دور القرآن الكريم في بناء المسلم النفسي:

تقتضي دراستنا لدور القرآن الكريم في بناء المسلم النفسي أن نتعرف على ثلاثة أمور:

الأول: كيفية تقديم الرسول ﷺ القرآن الكريم إلى الصحابة وإلى المسلمين من بعدهم.
الثاني: الأوصاف التي وصف بها الله -تعالى- قرآنه الكريم.
الثالث: الآثار التي يتركها القرآن الكريم.

وسأجتهد في توضيح الأمور الثلاثة، وتوضيح دورها في البناء النفسي للمسلم.

الأول: كيفية تقديم الرسول ﷺ القرآن الكريم للمسلمين:

قدّم الرسول ﷺ القرآن الكريم للمسلمين على أنه كلام الله تعالى، وعلى أنه وحي الله، وأنه تنزيل الله -عز وجل- فقال تعالى: ﴿**وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم**﴾ (النمل،6)، ﴿**طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلاً**

ممن خلق الأرض والسماوات العلى﴾ (طه،1-4)، ﴿**الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾** (الكهف،1).

وقد دارت معركة حامية حول إلهية القرآن الكريم واضطربت أقوال المشركين فقالوا عنه: سحر، قول بشر، قول كاهن، تعليم رجل أعجمي، أساطير الأولين، شعر إلخ...

وقد عرض القرآن الكريم هذه الأقوال فنقل اتهام الوليد بن المغيرة للقرآن بأنه سحر وقول بشر، فقال تعالى: ﴿**إنه فكّر وقدّر . فقُتل كيف قدّر . ثم قُتل كيف قدّر .ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر﴾** (المدثر،18-25)، وقال تعالى: ﴿**يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾** (الأنعام،25)، ﴿**بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾** (الأنبياء،5).

وقد ردّ القرآن الكريم عليهم بأن محمداً ﷺ معروف لديهم، وقد صاحبهم أربعين سنة، ولقبوه الأمين، ولم يعهدوا عليه كذباً أو خيانة، فكيف يتنكرون لحكمهم السابق ومعرفتهم القديمة، ويعبّر عن ذلك

بقوله "صاحبكم"، فقال تعالى: ﴿**ما ضلّ صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى**﴾ (النجم،2-3).

ثم طلب المشركون من الرسول ﷺ أن يبدّل شيئاً من الآيات القرآنية، فعلّمه الوحي أن يقول لهم إنني لا أستطيع أن أبدّل شيئاً منه لأنني متبع للوحي وأخاف ربي إن عصيته في أي فعل، فقال تعالى: ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدّله، قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إليّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون**﴾ (يونس،15-16).

وكان الله -تعالى- قد أقسم في آيات أخرى على أن هذا القرآن ليس بقول شاعر ولا بقول كاهن إنما هو قول الله -تعالى- وتنزيله سبحانه وتعالى: ﴿**فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين**﴾ (الحاقة،38-43).

وقد ردّ القرآن الكريم على أقوالهم المضطربة بأن تحداهم بأن يأتوا بحديث مثله أو بعشر سور مفتريات، أو بسورة مثله فقال تعالى: ﴿**فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين**﴾ (الطور،34)، ﴿**أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون**﴾(هود،13-14)، ﴿**أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين**﴾ (يونس،38-39).

هذه بعض معالم المعركة حول إلهية القرآن الكريم، فما نتائج الإيمان بإلهية القرآن الكريم؟

يولّد إيمان المسلم بإلهية القرآن الكريم أمرين:

الأول: الإيمان بأن القرآن الكريم فيه الحق الكامل، فقال تعالى: ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين**﴾ (الزمر،2)، ﴿**الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان**﴾ (الشورى،17).

الثاني: الإيمان بان القرآن الكريم فيه العلم الشامل، فقال تعالى: ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير**﴾ (البقرة،120)، ﴿**ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا من الظالمين**﴾ (البقرة،145).

ليس من شك بأن إيمان المسلم بإلهية القرآن الكريم وبالنتيجتين اللتين تنبثقان عن ذلك الإيمان وهما: الإيمان بأن القرآن يحوي الحق الكامل والعلم الشامل، ستتركان آثاراً نفسية عظيمة منها: الثقة في الحق الذي يدعو إليه، والاطمئنان إلى الطريق الذي يسير عليه.

الثاني: الأوصاف التي وصف الله –تعالى– بها القرآن الكريم:

لقد وصف الله –تعالى– القرآن الكريم بأفخم الصفات وأعلاها، وأرفعها شأناً مثل: مبين، عظيم، حكيم، مجيد، كريم، مبارك، عزيز، بشير، نذير، عليّ، وسنذكر بعض الآيات التي ورد فيها المدح السابق على سبيل المثال لا الحصر، فقال تعالى: ﴿**آلر . تلك آيات الكتاب المبين**﴾ (يوسف،1)، ﴿**ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم**﴾ (الحجر،87)، ﴿**يس . والقرآن الحكيم**﴾

(يس،1-2)، ﴿**ق. والقرآن المجيد**﴾ (ق،1)، ﴿**إنه لقرآن كريم . في كتاب مكنون**﴾ (الواقعة،77-78) إلخ...

ما الذي تبنيه الأوصاف السابقة في نفس المسلم؟ تبني تعظيم القرآن الكريم، والحرص عليه، والاهتمام به، وبخاصة أن الله -تعالى- وصف القرآن الكريم بصفات العقلاء مثل: الحكيم، الكريم، المبين.

الثالث: آثار القرآن الكريم:

لقد تحدثت آيات كثيرة عن أثر القرآن الكريم في النفوس والمجتمعات، فذكرت منها: الهدى، الرحمة، البشرى، الشفاء، النور، الخروج من الظلمات، التقوى، إحداث الذكر للعرب، وإحداث الخشوع لقارئه، وسنذكر بعض الآيات التي تحدثت عن بعض الآثار السابقة فقد قال تعالى: ﴿**ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين**﴾ (البقرة،1-2)، ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً**﴾ (الإسراء ،82)، ﴿**ألر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد**﴾ (إبراهيم،1) إلخ...

ما الحكمة من إخبار الله -تعالى- لنا عن أثر القرآن الكريم؟

الحكمة واضحة من أجل شد المسلمين إلى الحرص على كتاب الله من خلال إدراك الأثر الذي يمكن أن يتركه القرآن في قلوبهم وعقولهم، وفي أفرادهم ومجتمعاتهم، وبالتالي: سارتهم الهدى والرحمة والشفاء والنور عند ابتعادهم عنه.

والآن بعد أن بيّنا كيفية تقديم الرسول ﷺ القرآن الكريم للمسلمين، وبعد أن بيّنا أوصافه التي وصفه الله -تعالى- بها، وبعد أن بيّنا آثاره في النفوس والمجتمعات، فماذا يبني الكلام السابق بشكل مجتمع عن إلهية القرآن الكريم وعن صفاته وآثاره في نفس المسلم؟

يبني الأمور التالية:

1- تعظيم الله لأنه أنزل الكتاب الذي يحتوي على الحق والعلم.

2- حب الله -تعالى- لأنه أنزل القرآن الكريم الكتاب الهادي إلى الخير في الدنيا والآخرة.

3- تعظيم كتاب الله لأنه معجزة الرسول محمد ﷺ من زاويتين: مستوى البيان الذي جاء به، والعلوم التي احتواها.

4- الخضوع لكتاب الله وتحليل حلاله، وتحريم حرامه لأنه كلام الله القادر الحكيم الخبير.

5- حب كتاب الله لأنه نور ورحمة وبشرى.

6- الأنس بكتاب الله لأنه كلام الله تعالى.

7- رجاء الثواب في تلاوة كتاب الله وأخذ الأجر على تلاوة كل حرف منه.

8- الشعور بعالمية الرسالة المنوطة بالمسلم لأن القرآن كتاب الله إلى البشر جميعهم إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿**إن هو إلا ذكر للعالمين**﴾ (ص،87).

9- الإحساس بهيمنة القرآن الكريم على الكتب السابقة لأنه كتاب الله الأخير ، قال تعالى: ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه**﴾ (المائدة،48).

دور الرسول ﷺ في البناء النفسي للمسلم :

لقد كان للرسول ﷺ دور عظيم في بناء المسلم النفسي، وذلك ناتج من اتصافه ﷺ بأحسن الأخلاق وأعلى الصفات، وأفضل الشمائل، فقد وصفه -تعالى- بأنه على خلق عظيم فقال تعالى: ﴿**ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجراً غير ممنون .وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ (القلم،1-4). ووصفه كذلك بأنه رؤوف رحيم فقال تعالى: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾ (التوبة،128). ووصفه

بالبعد عن غلظة القلب فقال تعالى: ﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله**﴾ (آل عمران،159).

كما بيّن الله -تعالى- في عدّة مواضع من القرآن الكريم أنه رحمة للبشرية، وأنه ﷺ النذير والبشير والسراج المنير، فقال تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ (الأنبياء،107)، ﴿**يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً**﴾ (الأحزاب،45-46).

إن صفات الرسول ﷺ السابقة كان لها دور أساسي في البناء النفسي للمسلم ويمكن أن نستشف معالمه في الأمور التالية:

1- تعظيم المسلم للنبي محمد ﷺ لأنه رسول الله الذي حمل إليهم رسالة الله -تعالى- التي لا تقدر بثمن.

2- حب المسلم للرسول ص لحسن أخلاقه وعظيم شمائله.

3- حرص المسلم على الاقتداء بالرسول ﷺ والتأسي به.

4- رجاء دخول الجنة باتباع سنته وتنفيذ أوامره.

5- خوف خسارة الأجر، وحصول العذاب نتيجة الابتعاد عن سنة الرسول ﷺ.

وقد زاد في اغتناء الصحابة النفسي أخبار كثيرة نقلتها الأحاديث والآيات من مثل أنه سيكون ﷺ شهيداً على الناس جميعاً يوم القيامة، وأنه ﷺ خاتم الأنبياء، وأن صفته وردت في التوراة، وأنه فُضّل على الأنبياء بستة أمور، وأنه أول من يرفع رأسه يوم القيامة، وأنه وحده الذي يتقدم للشفاعة للمؤمنين إلخ ...، ونحن سنستعرض بعضاً من هذه الآيات والأحاديث.

فقد قال تعالى: ﴿**ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**﴾ (النحل،89). وقد تحدث الرسول ﷺ عن ختمه النبوة فقد نقل أبو هريرة أن الرسول ﷺ قال: "إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين" (صحيح البخاري).

وقد ذكر الرسول ﷺ أنه فضّل على الأنبياء بستة أمور فقد قال أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "فُضّلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأُحلّت لي الغنائم، وجعلت

لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون" (صحيح مسلم).

إن المسلم عندما يسمع الاخبار السابقة عن الرسول ﷺ سيزداد تعظيمه له وحبه، كما سيزداد تقديره له وتعلقه به، وسيزداد حرصه على الاقتداء والتأسي به.

الخلاصة: لقد أغنى القرآن الكريم والسنة المشرفة بناء المسلم النفسي على مدار التاريخ، فجاء المسلم ممتلئاً نفسياً وإيجابياً وفاعلاً إلخ... وما زال ذانك المصدران قادرين على إغناء البناء النفسي للمسلم في الوقت الحاضر، فعلينا أن ننهل منهما، ففي ذلك سبب لتجاوز المحنة، وفي ذلك زاد لتجاوز المشاكل والعقبات التي تواجه المسلم المعاصر.

الفصل الثالث

دور شهر رمضان في البناء النفسي للمسلم

لقد فرض الله ﷻ الصيام على المسلم في الثاني من شهر شعبان من السنة الثانية من الهجرة فقال ﷻ: ﴿**يا أيها الذين آمَنوا كُتِبَ عليكم الصيامُ كما كُتِبَ على الذين مِن قَبْلِكم لعلّكم تتّقونَ**﴾ (البقرة، 183)، وقد ربط الله ﷻ القرآن الكريم بشهر رمضان فقال: ﴿**شهرُ رمضانَ الذي أُنْزِلَ فيه القرآنُ هُدىً للناسِ وبَيِّناتٍ مِنَ الهُدى والفُرْقانِ فَمَن شَهِدَ منكُمُ الشهرَ فَلْيَصُمْهُ ومَن كان مريضاً أو على سَفرٍ فَعِدَّةٌ مَنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**﴾ (البقرة، 185)، والأرجح أنّ نزوله كان في ليلة القدر التي ازدادت شرفاً ورفعةً ومكانةً وقدراً بنزول القرآن الكريم فقال ﷻ : ﴿**إنّا أَنْزَلناهُ في ليلةِ القَدْرِ . وما أَدْراكَ ما ليلةُ القَدْرِ . ليلةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شهرٍ . تَنَزَّلُ الملائكةُ والروحُ فيها بإذْنِ ربّهِمْ مِن كُلِّ أَمْرٍ . سَلامٌ هي حتى مَطْلَعَ الفَجْرِ**﴾ (القدر، 1-5)، وقال ﷻ أيضاً عن ليلة القدر : ﴿ **إنّا أَنْزَلْناهُ في ليلةٍ مُباركةٍ إنّا كنّا مُنْذِرينَ . فيها**

يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكيمٍ . أَمْراً مِنْ عندنا إنّا كنّا مُرْسِلينَ﴾ (الدخان،3-5)، لذلك كان شهر رمضان شهر مدارسة القرآن عند الرسول ﷺ وكان يتدارسه مع جبريل عليه السلام ، فقد نقل البخاري عن ابن عبّاس رضي الله عنه فقال: "كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة". لذلك اقتدى المسلمون برسولهم وكان شهر رمضان بالنسبة لهم شهر تلاوة القرآن ومدارسته، ويستحب ختم القرآن الكريم في صلاة التراويح ليسمع الناس جميع القرآن الكريم. ويُسنّ القيام في شهر رمضان للرجال والنساء، فقد روى الجماعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يرغب في قيام رمضان من غير أن يأمر فيه بعزيمة فيقول: "من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه". ورووا إلا الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: صلّى النبي ﷺفي المسجد فصلّى بصلاته ناس كثير ثم صلّى القابلة فكثروا، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة فلم يخرج إليهم، فلما

أصبح قال: "قد رأيت صنيعكم فلم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تفرض عليكم" وذلك في رمضان.

ويُسنّ الاجتهاد في العشر الأواخر بالقيام وتلاوة القرآن الكريم كما كان يفعل الرسول ﷺ فقد روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أنّ النبي ﷺ: "كان إذا دخل العشر الأواخر أحيى الليل، وأيقظ أهله، وشدّ المِئْزَر" وفي رواية لمسلم: "كان يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره"، وروى الترمذي في سننه عن علي رضي الله عنه قال: "كان رسول الله ﷺ يوقظ أهله في العشر الأواخر، ويرفع المئزر".

إذن يقوم رمضان على ثلاثة محاور: الصيام، وتلاوة القرآن، وقيام الليل، فكيف تبني هذه المحاور نفسية المسلم؟ ولنبدأ أولاً بالصيام.

أولاً: الصيام:

يبني الصيام حب الله ﷻ في نفسية المسلم، فعندما يمتنع المسلم عن محبوبين إلى نفسه، لصيقين بذاته وهما: الطعام والنساء من أجل محبوب أعظم هو الله ﷻ، لا شك أنّ هذا ينمي حب الله ﷻ في ذات المسلم، ويجعله يرتقي إلى مستوى عالٍ من الشفافية وسمو النفس وقوة الإرادة.

وكذلك يبني الصيام الرجاء في نفسية المسلم، فهو عندما يصوم يرجو من الله الأجر العظيم، لأنّ الصيام له ﷻ وهو يجزي به. فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: "قال الله عز وجل: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي، وأنا أجزي به، والصيام جُنَّة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، ولا يجهل، فإن شاتمه أحد أو قاتله فليقل: إني صائم مرتين، والذي نفس محمد بيده لخَلُوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وللصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه" (رواه أحمد ومسلم والنسائي).

كما يرجو الصائم أن يشفع له الصيام والقرآن، فقد روى عبد الله بن عمرو أنّ النبي ﷺ قال: "الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام أي ربّ منعته الطعام والشهوات بالنهار، فشفّعني به، ويقول القرآن منعته النوم بالليل، فشفّعني به، فيشفّعان" (رواه أحمد بسند صحيح).

كما يرجو المسلم أن يبعده الله عن النار بصيامه، فقد روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: "لا يصوم عبد يوماً في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم النار عن وجهه سبعين خريفاً" (رواه الجماعة إلا أبا داود).

كما يرجو المسلم أن يدخل الجنّة من باب الريّان مع الصائمين، فقد روى سهيل بن سعد أنّ النبي ﷺ قال: "إنّ للجنة باباً يُقال له الريّان، يُقال يوم القيامة: أين الصائمون؟ فإذا دخل آخرهم، أُغلق ذلك الباب" (رواه البخاري ومسلم).

كما يبني الصيام تقوى الله، وتتولّد تلك التقوى من امتناع المسلم الصائم عن الإقدام على قضاء شهوتي الفرج والبطن مع قدرته على ذلك خوفاً من عقاب الله ﷻ ، ويأتي ذلك مصداقاً لقوله ﷻ: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصيامُ كما كُتِبَ على الذين مِن قبلِكُم لعلكم تَتَّقونَ**﴾ (البقرة،183).

ثانياً : القرآن الكريم:

لاشك أنّ سماع المسلم لآيات القرآن الكريم في صلاتي التراويح والقيام ستكون ذا أثر في بنائه النفسي، وأبرز هذه الآثار هي :

1- الاعتبار والاتعاظ بما يسمعه من القصص القرآني حول دعوة الأنبياء للأمم السابقة ، ونجاة المؤمنين وهلاك الكافرين، ويأتي كل ذلك مصداقاً لقوله ﷻ : ﴿**يا أيّها الناسُ قد جاءَتْكُم موعظةٌ مِن ربّكُم وشِفاءٌ لما في الصدورِ وهُدىً ورحمةٌ للمؤمِنينَ**﴾ (يونس،57).

2- خشية القلب ووَجَله من صور العذاب التي تصفها آيات الله المتْلُوَّة، ورجاؤه وشوقه إلى الجنة التي يسمع صفاتها، وقد وصف الله ﷻ حال أولئك الخاشعين الراجين فقال ﷻ: ﴿**اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ منه جُلودُ الذين يخشَوْنَ رَبَّهُمْ ثم تَلينُ جُلودُهُمْ وقُلوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ ذلك هُدى اللهِ يهدي بهِ مَن يشاءُ ومَن يُضْلِلِ اللهُ فما لهُ مِنْ هادٍ**﴾ (الزمر،23).

3- الهدى والنور اللّذانِ يتولّدان في قلب المسلم عندما يسمع آيات القرآن الكريم تتحدث عن صفات الله العظيمة، وقدرته الخارقة، ورحمته الواسعة، وسبل إرضائه ﷻ، وعن الحلال والحرام، ويأتي ذلك موافقاً لقوله ﷻ: ﴿**قد جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نورٌ وكِتابٌ مُبينٌ . يَهْدي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ويُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النورِ بِإِذْنِهِ ويَهْديهِمْ إلى صِراطٍ مُستقيم**﴾ (المائدة،15-16).

ثالثاً : القيام :

لاشك أنّ أداء المسلم لقيام رمضان سيكون له أثر في بنائه النفسي وأبرزها:

1- تعظيم الله ﷻ: فعندما يكابد المسلم شهوة النوم ويتغلّب عليها ويقف بين يدي الله طالباً رحمته آملاً بمغفرته لاشك أنّ هذا سيولّد عنده تعظيم الله ﷻ.

2- الخضوع لله ﷻ: عندما يقف المسلم بين يدي ربه في العشر الأواخر من رمضان في الثلث الأخير من الليل، ويجتهد في قيامه وركوعه وسجوده وتلاوته القرآن الكريم، لاشك أنّ هذا سيولّد عنده الخضوع لله ﷻ، لأنّه يمتثل قول ربه ﷻ: **﴿يا أيّها المُزَّمِّلُ . قُمِ الليلَ إلاّ قليلاً . نِصْفَهُ أو انْقُصْ منهُ قليلاً . أو زِدْ عليهِ ورَتِّلِ القرآنَ تَرْتيلاً . إنّا سَنُلْقي عليك قَوْلاً ثَقيلاً . إنَّ ناشِئَةَ الليلِ هي أَشَدُّ وَطْئاً وأَقْوَمُ قِيلاً﴾** (المزّمل، 1-6).

ليس من شك بأن لشهر رمضان دوراً عظيماً في البناء النفسي للمسلم، وقد طوّفنا في السطور السابقة ببعض المعاني التي يمكن أن يبنيها هذا الشهر الذي يمكن أن نطلق عليه بحق إنه شهر الصيام وشهر القرآن وشهر القيام.

الفصل الرابع

أزمة المسلم المعاصر النفسية : أبعاد وحقائق

تناولت دراسات متعددة في الفترة الأخيرة الجانب العقلي [1] في المسلم المعاصر، لكن الدراسات التي تناولت الجانب النفسي معدودة ومحدودة، وانطلاقاً من هذه الحاجة سألقى الضوء على بعض جوانب هذه الأزمة، لعلها تكون فاتحة لدراسات أخرى.

برزت عدة ظواهر سلبية مؤخراً في حياة المسلم المعاصر النفسية منها: التواكل، السلبية نحو المحيط الاجتماعي، بروز الفردية، ضعف التوجه الجماعي، الرغبة في الخلاص الفردي، القلق والانهزام أمام الحضارة الغربية إلخ... وقد أَرجع كثير من المفكرين الإسلاميين وعلى رأسهم محمد عبده ومالك بن نبي هذه الظواهر إلى انحطاط فهم القضاء والقدر، وإلى انتشار التصوف، وبيّنوا أن إيمان المسلمين الأوائل

(1) منها: أزمة العقل المسلم للدكتور عبد الحميد أبو سليمان، تشكيل العقل المسلم عماد الدين خليل، ومنها كتابا محمد عابد الجابري: نقد تكوين العقل العربي وبنية العقل العربي.

بالقضاء والقدر في صورته الصحيحة كان عامل امتياز وفاعلية، في حين أن إيمان المسلمين المتأخرين بالقضاء والقدر في صورته الخاطئة أصبح عامل انحطاط وتأخر، وذلك أن المسلمين الأوائل فهموا أن الإيمان بالقضاء لا يتناقض مع الأخذ بالأسباب، بل يأمر الفهم الصحيح والإيمان الصحيح بالقضاء والقدر بأن يأخذ المسلم بالأسباب، في حين أن المسلم الذي عاش في العصور الأخيرة فهم الإيمان بالقضاء والقدر على أنه ترك الأسباب، كما ندّدوا بالتصوف ووضّحوا آثاره السلبية في حياة المسلمين الاجتماعية والعقلية والنفسية، وبيّنوا مخالفته للتعقّل والحكمة في الإسلام.

وإن تقصي أسباب تلك الظواهر يجعلنا لا نقف عند ذلك التعليل فحسب، بل يجعلنا نسأل: لماذا كان هناك خطأ في فهم القضاء والقدر في مرحلة من التاريخ الإسلامي؟ ولماذا انتشر التصوف؟ ولماذا قبله المجتمع الإسلامي في وقت معيّن؟ إن الجواب على هذه الأسئلة وأمثالها يجعلنا نضع يدنا على السبب الجوهري لانتشار هذه الظواهر في المجتمع الإسلامي. ونحن من أجل أن نجيب على هذين السؤالين سنبحث عن جوابهما في فرعين رئيسيين من البناء الثقافي الإسلامي: العقيدة والفقه، وذلك ضمن الفقرات التالية:

أولاً: العقيدة:

1- دور العقيدة في البناء النفسي للمسلم حسب الطرح القرآني.

2- دور العقيدة في البناء النفسي للمسلم حسب طرح كتاب جوهرة التوحيد للباجوري

ثانياً: الفقه:

1- دور العبادات في البناء النفسي للمسلم حسب الطرح القرآني .

2- دور العبادات في البناء النفسي للمسلم حسب طرح كتاب الفقه على المذاهب الأربعة.

3- مقارنة بين الدورين.

أولاً: العقيدة:

1- دور العقيدة في البناء النفسي للمسلم حسب الطرح القرآني:

إن البناء العقائدي للمسلم يقوم على الإيمان وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء القدر، وقد وضّح هذه الأركان حديث جبريل المشهور الذي سأل فيه جبريل الرسول ﷺ ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، ونحن اعتماداً على هذا الحديث سنوضح البناء العقائدي للمسلم.

أ – الإيمان بالله:

إن أبرز ما يميز القرآن الكريم في حديثه عن الله تعالى هو ليس الكلام المجرد، إنما كلامه من خلال أفعال لله لها علاقة بالكون كخلق الإنسان، وخلق السماوات والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، وقد عرض القرآن كذلك صفات الله تعالى كالقدرة والعلم والرحمة والسمع والبصر من خلال آيات الكون ومظاهر الطبيعة وعالم الغيب الشهادة.

إن هذه الطريقة في الكلام كان لها أثرها في البناء النفسي، وأنا من أجل توضيح هذا الأثر في البناء النفسي سآخذ مثالاً هو كلام الله عن خلقه الإنسان وأبيّن هذه الطريقة القرآنية في البناء النفسي عند المسلم.

ب– كلام القرآن عن خلق الله تعالى للإنسان:

بيّن الله تعالى خلق الإنسان من طين فقال تعالى: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين**﴾ (المؤمنون، 12)، وبيّنت الآيات استخلاف الله للإنسان وإخبار الملائكة بذلك وسؤالهم عن سر أحقيته في هذه الخلافة فقال تعالى: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك**

الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ (البقرة،ربيع أول)، وبيّن أنه طلب من الملائكة السجود لآدم فسجدوا إلا إبليس، قال تعالى: **﴿ولقد خلقناكم وصوّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾** (الأعراف،محرم محرم)، وبيّن تعالى أن الله خلق للإنسان زوجاً منه فقال تعالى: **﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة لعلكم تتفكرون﴾** (الروم،محرم صفر)، وقد بيّن الله تعالى أنه أنعم على هذا المخلوق بنعمة السمع والبصر والفؤاد فال تعالى: **﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾** (المؤمنون،شعبان رجب)، وقال تعالى: **﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾** (الملك،ربيع أول صفر)، وقال تعالى: **﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾** (النحل،شعبان رجب)، وقد بيّن الله تعالى أنه هو الذي سخّر للإنسان كل ما في الأرض، وسخّر له الشمس والقمر والليل والنهار وسخّر له البحار التي تجري الفلك فيها ويستخرج الحلية واللحم الطري منها فقال تعالى: **﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية**

لقوم يذّكرون . وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (النحل، صفر محرم – ربيع ثان محرم) .

إن المسلم عندما يعلم تلك الحقائق بأن الله خلقه فأصبح هذا الإنسان الذي يسمع ويحس ويعقل ويتحرك، لاشك أن الإنسان عندما يتأمل الهوة الكبيرة التي تفصل بين المادة التي ابتدأ منها والصورة التي انتهى إليها يعظّم الله تعالى.

وعندما يعلم أن الله استخلفه دون بقية المخلوقات وأن الله تعالى أكرمه بأن طلب من الملائكة السجود له يعظم الله تعالى ويحمده على هذا الإكرام.

وعندما يعلم المسلم أن الله أنعم عليه بنعمة السمع والبصر والفؤاد، وأنعم عليه بالزوجة عندما يعلم المسلم ذلك ويوقن به يعظّم الله تعالى ويحبه تعالى ويرجوه أن يستمر في تسخيره هذه النعم التي يستمتع فيها.

وعنـدما يعلـم المسـلم أن الله تعـالى سـخّر لـه الليـل والنهـار والشمس والقمر وسخّر له البحار التي تجري السفن فوقها ويستخرج اللحم الطري من داخلها، وسخّر له الأرض التي تخرج النبات والزرع الذي يأكل منه ويستفيد، عندما يعلم كل ذلك يعظّم الله لأنه خلق هذه المخلوقات العظيمة، ويحبه تعالى لأنه سخّرها له يستفيد منها ويستمتع بها، ويرجوه تعالى أن يستمر هذا التسخير.

ج- أركان الإيمان الأخرى:

وكذلك الحديث عن بقية الإيمان: الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر، فقد كان للقرآن طريقة خاصة في تناولها إلى إغناء البناء النفسي للمسلم، وأبرز معالم هذا التناول الخاص عرض هذه العناصر من خلال وقائع تدل على قدرة الله تعالى وعلمه ورحمته وقوته.

وبالنسبة للملائكة قد بيّن الله تعالى أنه خلقهم من نور وأن بعضهم يحفّ العرش مسبحاً بحمد الله تعالى، وأنهم يتعاقبون في شهود صلاة المؤمنين وأنهم يشهدون صلاة الجمعة، وأن منهم مالكاً خازن النار، وأن منهم ملك الموت الموكّل في قبض أرواح العباد، وأنهم يحفظون الناس بأمر الله، وأنهم يصلون على المؤمنين، وأنهم أغاثوا

المسلمين في معركة بدر إلخ... وقد وردت آيات كريمة وأحاديث في كل المعاني السابقة، فعندما يعلم المسلم تلك الوقائع عن الملائكة ويوقن بها، فإن المسلم يعظّم الله لأنه خلق مخلوقات من نور لا تقع تحت بصره، عظيمة في قدرها، وفي المهام التي تؤديها مثل حمل العرش، وقبض الأرواح، النزول بوحي الله، والنفخ في الصور يوم القيامة، وكتابة حسنات الناس وسيئاتهم، وكذلك يحب الملائكة لأنهم يبشرون المؤمنين ويستغفرون لهم، ويشهدون صلواتهم، وكذلك يحب الله الذي سخّر الملائكة التي تقف أمامه وخلفه وعلى جنبه لتحفظه من كل ما يضره.

وأما بالنسبة للركن الثالث من أركان الإيمان وهو الإيمان بالكتب فقد أخبرتنا الأحاديث الشريفة بأن الله أنزل أربعة وعشرين كتاباً، وقد ذكر القرآن منها: الصحف على إبراهيم، والتوراة على موسى، والزبور على داوود، والإنجيل على عيسى، والقرآن على محمد، وقد امتدح القرآن هذه الكتب في أكثر من آية، وقد وصف الله تعالى القرآن بأحسن الصفات، وبيّن آثاره العظيمة من هداية ونور، وليس من شك بأن الإيمان بالكتب بالصورة التي يعرضها القرآن والسنة الشريفة يجعل المسلم يعظم الله تعالى ويحبه لأنه أنزل الكتب التي أرشدت البشر إلى

الخير في دنياهم وآخرتهم، كما تجعل المسلم يحب كتب الله لأنها مثلت منارات في ظلمات الطريق وبؤرة إشعاع في دياجير الضلال.

وبالنسبة للركن الرابع وهو الإيمان بالرسل فإن الله أخبرنا بأنه بعث أنبياء ورسلاً إلى مختلف الأقوام والشعوب، كما قصّ علينا القرآن الكريم والسنة النبوية تفاصيل كثيرة عن حياتهم، ودعوتهم، ومعجزاتهم، وصراعهم مع أقوامهم، وعن اضطهاد الكافرين لهم، ثم إنجاء الله لهم، وإهلاك المكذبين بهم والكافرين بهم، ولم تخل سورة تقريباً من حديث عن نبي أو أكثر.

ليس من شك بأن الركن الرابع له دوره في البناء النفسي بالصورة التي عرضته مصادر الإسلام ويتجلّى ذلك بحب الله وتعظيمه لإرسال الرسل الذين مثلوا القدوة الحسنة للبشرية في سلوكهم وتصرفاتهم، كما يبعث الإيمان بالرسل والأنبياء الأمل في الانتصار، لأن الانتصار كان نهاية صراعاتهم مع الباطل، كما يعمق الاحساس بالانتماء ويطرد الاحساس بالغربة لأنه يسير على خطاهم، ويهتدي بهديهم.

أما بالنسبة للركن الخامس وهو الإيمان باليوم الآخر فإن القرآن والسنة حَوَيا كثيراً من التفصيلات عن اليوم الآخر بدءاً من سكرات الموت إلى الدخول في القبر إلى البعث مرة ثانية والدخول في عالم الحشر

ثم الانتهاء إلى نعيم الجنة أو عذاب القبر، ليس من شك بأن هذه التفصيلات عن اليوم الآخر المقصود منها أن يوجّه المسلم طاقة الخوف عنده إلى الخوف من نار الله تعالى، وأن يوجّه طاقة الرجاء عنده إلى جنة الله تعالى.

أما بالنسبة للركن السادس[1] وهو الإيمان بقضاء الله وقدره، وبأن كل ما يحدث له إنما هو بعلم الله تعالى وقدرته، وإنه مسجل ومكتوب في اللوح قبل أن يقع له وقبل أن يخلق الله السماوات والأرض، فليس من شك بأن هذا الإيمان بهذه الصورة يساهم في بناء الثقة في الله تعالى.

- دور العقيدة في البناء النفسي للمسلم حسب كتاب "جوهرة التوحيد" للباجوري:

كيف عرض الباجوري في كتاب "شرح جوهرة التوحيد" العقيدة الإسلامية، علماً بأنه من أكثر الكتب شيوعاً واعتماداً للتدريس في العصور المتأخرة؟ وكيف تناول أركان الإيمان؟

(1) انظر تفصيلات عن بناء أركان الإيمان الستة لنفسية المسلم في كتابي "جذور أزمة المسلم المعاصر: الجانب النفسي" الصفحات (57-100).

تحدث كتاب شرح الجوهرة عن الله من خلال إشكالية مستحدثة لم تعرفها مصادر الشرع الإسلامي وهي وجود الله، فيطرح السؤال التالي: ما الدليل على وجود الله؟ ويجيب عن هذا السؤال فيقول: "إن أجاب هذا العالم بشكل مجمل دون التفصيل المعتبر عند المناطقة فقد جاء بالدليل الجملي، وإن فصّل الجواب حسب ما يريده المناطقة فقد جاء بالدليل التفصيلي"[1] . ويقتضي الدليل التفصيلي أن يتكلم الباجوري عن العدم والوجود وأقسام الحكم العقلي: الواجب والجائز والمستحيل لينتهي أن الله واجب الوجود، ويعتبر الباجوري أن من لا يعرف وجود الله بهذه المقدمات مؤمناً عاصياً إن قدر على النظر، وكافراً في رأي آخر كما ينقل عن السنوسي[2] .

---

(1) الباجوري، شرح جوهرة التوحيد (ص 32).
الباجوري هو الشيخ إبراهيم بن محمد بن أحمد الباجوري شيخ الجامع الأزهر من فقهاء الشافعية نسبة إلى "الباجور" من قرية المنوفية بمصر، وهو شارح "جوهرة التوحيد" وهذا الشرح من أكثر كتب العقائد شيوعاً وتدريساً ولهذا اخترته حتى يكون أساس المقارنة.

(2) المرجع السابق (ص 34).

ثم يبيّن الباجوري أن الواجب على المكلف أن يعرف عشرين صفة لله تعالى بأدلتها العقلية والنقلية والعادية بعد أن يعرف كل دليل منها[1] . ثم يتحدث الباجوري عن هذه الصفات فيقسمها إلى ثبوتية وسلبية[2] ؛ ويعرف كلاً من الثبوتية والسلبية فيقول: "الثبوتية ما يدل على نفس الذات وهي الوجود، ومنها ما يدل على معنى زائد عن الذات وهي صفات المعاني والمعنوية، وكلاً هي أربع عشرة"، ويبيّن أن السلبية تبلغ خمس صفات فقط، صم يدلل على واجب الوجود ببطلان التسلسل والدور، ثم يتحدث عن الصفات السلبية وهي: المخالفة للحوادث التي يلحقها القدم، وقيامه بالنفس والمقصود: عدم افتقاره تعالى إلى المحلّ والمخصص، والوحدانية التي تعني: وحدانية الذات والصفات والأفعال.

ثم ينتقل إلى صفات المعنى فيذكر صفة القدرة ويشير إلى تعلقها السبع ويتحدث عن صفة الإرادة ويذكر أن لها تعلّقاً صلوحياً قديماً بمعنى صلوحها في الأزل للإيجاد والإعدام، وأن لها تعلّقاً تنجيزياً قديماً

---

(1) المرجع السابق (ص 43).

(2) المرجع السابق (ص 70 وما بعدها).

بمعنى الإيجاد والإعدام بالفعل، ثم يتحدث عن صفة العلم فيوجبها لله تعالى، وتعلق العلم تعلّق تنجيزي قديم، ثم يقرر صفتي الحياة والكلام لله تعالى، ويتبع ذلك بالكلام عن صفتي السمع والبصر ويقرر أن لهما ثلاث تعلقات: صلوحياًَ قديماً، وتنجيزياً قديماً، وتنجيزياً حادثاً، ثم يقرر صفة الإدراك وينقل الاختلاف في شأنها، ثم ينتقل إلى الحديث عن الصفات المعنوية وهي: حي، عليم، قادر، مريد، سميع، بصير، متكلم، ويوضح الفرق بين صفات المعاني والمعنوية: أن المعاني صفات وجودية، والمعنوية ثبوتية بمعنى أنها عبارة عن قيام المعنى بالذات، وأن المعاني ملزومة للمعنوية عقلاً، والمعنوية لازمة للمعاني بمعنى أنه يلزم من كونها قادراً أنه موصوف بالقدرة. ثم يتحدث عن علاقة صفات الذات بالذات فيقرر أنها ليست بعين الذات ولا غيرها.

وهناك شيء آخر نجد أنه مستحدث ومقرر في كتاب الباجوري وهو التأويل[1] ، ونجد أن كثيراً من صفات الله وأفعاله أو معظمها خضعت لقانون التأويل، وليس من شك بأن النتيجة المباشرة لمثل هذه العملية هو انعدام التأثير النفسي لكثير من أفعال الله وصفاته.

---

(1) المرجع السابق (ص 149).

أما الأركان الأخرى للإيمان فنجد أن الباجوري تحدث عن ركن الرسل فقال: "إن إرسال الرسل فضل من الله وليس واجباً كما ذكر الفلاسفة والمعتزلة، وليس مستحيلاً كما ذهب السمنيّة والبراهمة" ثم بيّن الصفات التي تجب لهم وقرّر عدم اكتساب النبوة وأفضلية محمد ﷺ في النهاية.

أما الأركان الأخرى للإيمان فبعضها لم يرد عنه حديث أصلاً: كالملائكة، والكتب، وبعضها الآخر ورد الحديث عن أجزاء منه مثل الإقرار أن هناك ميزاناً وصراطاً وحوضاً في معرض الحديث عن اليوم الآخر.

المقارنة بين الدورين:

- رأينا أن الحديث عن الله وصفاته في القرآن والسنة من خلال الكون والطبيعة والإنسان أن ذلك يؤدي إلى إغناء البناء النفسي للمسلم، ولكن رأينا الحديث عن الله وصفاته في كتاب الباجوري يأتي بشكل مجرد أو من خلال مشاكل وإشكالات مثارة حول وجود الله وصفاته مما جعل الكتب المتأخرة تفقد أية مساهمة في البناء النفسي للمسلم.

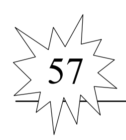
صَفَرٌ– إقرار التأويل في كتاب الباجوري واعتباره الأصل في التعامل مع صفات الله وأفعاله، ضيّق المساحة المساهمة في إغناء البناء النفسي للمسلم.

رَبِيعٌ أوّل– كان تناول أركان الإيمان الأخرى مثل: الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر في كتاب الباجوري من خلال صورتين:

الأولى: الإشكالات الفكرية الموجودة في المناخ الإسلامي مما سيؤدي إلى إنعدام الأثر النفسي لها بالمقارنة مع تناولها في القرآن والسنة.

الثانية: الحديث الجزئي عن هذا الركن مما يقلّل الأثر في البناء النفسي.

ربيع ثانٍ– لا يوجد أي حديث عن بعض الأركان أحياناً مما يؤدي إلى خسارة البناء رافداً أو أكثر من روافد البناء النفسي.



ثانياً: الفقه:

محرم- دور العبادات في البناء النفسي حسب الطرح القرآني:

ليس من شك بأن العبادات لها ارتباط وثيق بالقلب وبالنفس حتى وإن كانت بدنيّة، فقد قصد الشارع من فرضها توليد الخشوع والاطمئنان فقال تعالى: ﴿**قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾ (المؤمنون، محرم-صفر)، وقد بيّنت بعض الآيات أن ذكر الله يجعل القلب مطمئناً فقال تعالى: ﴿**الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾ (الرعد، شعبان صفر)، وقد بيّنت آيات سورة المعارج أن الإنسان يكون في خوف دائم وفي بخل مستمر وتستثني الآيات من ذلك المصلّين الذي هم على صلاتهم دائمون، قال تعالى: ﴿**إن الإنسان خلق هلوعاً . إذا مسّه الشر جزوعاً . وإذا مسّه الخير منوعاً . إلا المصلّين . الذين هم على صلاتهم دائمون**﴾ (المعارج، رمضان محرم-ربيع أول صفر)، وقد بيّن الله تعالى أن الصلاة كبيرة وثقيلة إلا على الخاشعين الذين يوقنون بلقاء الله تعالى، ويخافون عذابه, ويرجون جنته فقال تعالى: ﴿**واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . الذين يظنّون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون**﴾ (البقرة، جمادى أول ربيع ثان-جمادى ثان ربيع ثان)، وقد صرحت الآية التي أمرت بأخذ الزكاة من

المسلمين أن القصد من ذلك هو التوصل إلى تطهير المسلمين وتزكيتهم، والمقصود من ذلك جعلهم يعظّمون الله عوضاً عن المال، قال تعالى: ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم**﴾ (التوبة، ربيع أول شوال محرم)، وقد صرحت الآية التي تحدثت عن الصيام بأن الله فرضه من أجل توليد التقوى، قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾ (البقرة، ربيع أول شعبان محرم)، وقد صرحت بعض الآيات إلى أن الهدف من أحد أعمال الحج وهو ذبح الهَدْي توليد التقوى والخوف في قلوب العباد من الله، لأن الله لن يصل إليه شيء من لحوم الأضاحي ودمائها ولكن تصله التقوى التي تتمثل في الخوف منه تعالى، وفي الحرص على تنفيذ أمره، قال تعالى: ﴿**والبُدْن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليه صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمُعْتر وكذلك سخّرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخّرها لكم لتكبّروا الله على ما هداكم وبشّر المحسنين**﴾ (الحج، جمادى ثاني ربيع أول– رجب ربيع أول)، ووصف الله الذين أوتوا العلم بالخشوع عندما يسمعون كلام الله يتلى عليهم فقال تعالى: ﴿**إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرّون للأذقان سجّداً . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا**

لمفعولاً . ويخرّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾ (الإسراء، رجب شوال محرم – شعبان شوال محرم)، إذن توليد الخشوع والاطمئنان هدف رئيسي من أهداف جميع العبادات حسب الطرح القرآني.

صفر– دور العبادات في البناء النفسي حسب طرح كتاب "الفقه على المذاهب الأربعة":

ليس من شك بأن الركوع والسجود مظهران رئيسيان من مظاهر خضوع العبد المسلم لربه، ونستطيع أن يقول أنهما قمتان من قمم عبادة المسلم لربه، ولنرى ماذا قال عنهما كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، قال الكتاب: "الحنفية، قالوا يحصل الركوع بطأطأة الرأس، بأن ينحني انحناء يكون إلى حال الركوع أقرب، فلو فعل ذلك صحت صلاته، ثم باكمال الركوع فهو انحناء الصلب حتى يستوي الرأس بالعجز، وهذا في ركوع القائم، أما القاعد فركوعه يحصل بطأطأة الرأس مع انحناء الظهر، ولا يكون كاملاً إلا إذا حاذت جبهته قدام ركبتيه"[1] . وقال الكتاب عن السجود: "قالوا: حد السجود المفروض هو أن يضع جزءاً ولو قليلاً من جبهته على ما يصح السجود عليه، أما وضع

---

(1) الفقه على المذاهب الأربعة، ج1، (ص 231).

جزء من الأنف فقط فإنه لا يكفي إلا لعذر على الراجح، أما وضع الخد أو الذقن فإنه لا يكفي مطلقاً لا لعذر ولا لغير عذر ولابد من وضع إحدى اليدين وإحدى الركبتين وشيء من أطراف إحدى القدمين، ولو كان إصبعاً واحداً على ما يصح السجود عليه، وأما وضع أكثر الجبهة فإنه واجب، ويتحقق السجود الكامل بوضع جميع اليدين والركبتين وأطراف القدمين والجبهة والأنف"[1] .

نلحظ من خلال الكلام السابق تركيز الكتاب على صورتي الركوع والسجود، ومظهرهما، ورسمهما، ونلحظ إغفاله للحديث عن عقلهما ووعيهما وعن الخشوع لله وتعظيمه الذي يجب أن يرافقهما والذي هو الهدف من فرضهما.

ربيع أول– مقارنة الدورين:

نجد بَوْناً شاسعاً فيما استهدفه القرآن من فرض العبادات وبين ما تحدث عنه كتاب الفقه على المذاهب الأربعة نفسها، فنجد أن الهدف من جميع العبادات حسب الطرح القرآني توليد أمور معنوية مثل الخشوع والتقوى والتطهر، لكننا لا نجد لذلك أثراً في كتاب الفقه الذي

---

(1) المرجع السابق، ج1، (ص 232).

يتحدث عن مظهرين من مظاهر العبادة وهما الركوع والسجود، بل نجد تركيزاً على صورة العبادة، ورسمها، وإطارها الخارجي، ولا نجد أي تركيز يذكر على عقل الصلاة الذي هو الخطوة الأولى لتوليد الخشوع، ولا نجد كذلك ذكراً للأمور المعنوية الأخرى التي تتولّد عن أعمال الركوع والسجود مثل: التعظيم، والرجاء، والتقوى، والإنابة، والإخبات إلخ... ناهيك عن الحديث عن تبيان الأهمية الشرعية للخشوع مثلاً وتوضيح كيفية زيادته، والعوامل التي تؤدي إلى نقصانه في الصلاة إلخ...، وليس هذا فحسب لكننا نجد على النقيض من هذا تقليلاً لقيمة أية توجيهات مباشرة وصريحة في هذا المجال فنجد أن الأمر الواضح بالاطمئنان من الرسول ﷺ والذي ورد في حديث المسيء صلاته يتحرّف ليصبح ليس فرضاً أولاً، وليتحول تحديد الاطمئنان بالعمل الجسمي وليس بالحالة النفسية ثانياً كما هو واضح من أمر الرسول ﷺ بالاطمئنان في الحديث المذكور الذي جاء فيه: "دخل رجل المسجد فصلى ثم جاء النبي ﷺ فرجّ عليه السلام وقال: ارجع فصلّ فإنك لم تصلّ. فرجع، ففعل ذلك ثلاث مرات. فقال: والذي بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلّمني. فقال: إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعاً ثم ارفع حتى تعتدل

قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها" (رواه البخاري ومسلم وأحمد).

وقد جاء في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ما يلي: "الفرض السابع: الرفع من الركوع، الثامن: الرفع من السجود، التاسع: الاعتدال، العاشر: الطمأنينة. هذه الفرائض الأربعة متصلة ببعضها، وقد اتفق على فرضيتها ثلاثة من الأئمة، وخالف الحنفية في فرضيتها، بل قالوا: إن الرفع من الركوع والطمأنينة من واجبات الصلاة لا من فرائضها، بحيث لو تركها المصلي لا تبطل صلاته، ولكنه يأثم إثماً صغيراً، كما تقدم بيانه غير مرة"[1] . "الحنفية: فقالوا: الطمأنينة: وهي تسكين الجوارح حتى تطمئن المفاصل، ويستوي كل عضو في مقرّه بقدر تسبيحه على الأقل، واجبة في الركوع والسجود، وكذا في كل ركن قائم بنفسه". "المالكية: وأما الطمأنينة فهي ركن مستقل في جميع أركان الصلاة وحدّها

(1) المرجع السابق، ج1، (ص 234).

استقرار الأعضاء زمناً ما زيادة على كل ما يحصل به الواجب من الاعتدال والانحناء، وكل ذلك لازم لابد منه في الصلاة عندهم"[1] .

النتيجة التي يمكن أن نقرّرها من هذه المقارنة إن الفقه ذهب بعيداً فركز على صورة العبادة، ومظهرها، ورسمها، وأغفل الحديث عن الجانب النفسي الذي يجب أن يرافقها والذي هو المقصود من فرضها، والهدف من تشريعها كما وضّح القرآن الكريم[2] ، ليس من شك بأن هذا التوجّه جعل الفقه بصورته التي انتهى إليها يساهم في الإفقار النفسي للمسلم[3] في حين أنه يفترض أن يكون عاملاً في الإغناء النفسي للمسلم.

---

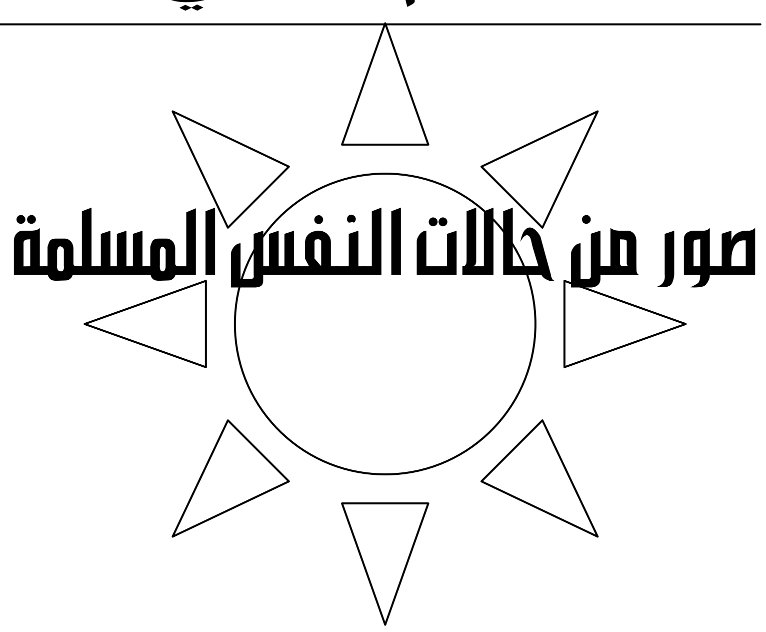
(1) المرجع السابق، ج1، (ص 234-235).

(2) إن هذا الإغفال للجانب النفسي المعنوي كان النافذة التي دخل التصوف منها على الأمة الإسلامية وخير دليل على ذلك كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي الذي أوهمها بأنه يلبي حاجتها تلك.

(3) هناك علماء لاحظوا هذا الخلل، وزاوجوا في تقديمهم بين صورة العبادة وحقيقتها وأبرزهم أحمد بن حنبل وابن القيم الجوزية في رسالتيهما حول الصلاة.

الخلاصة: إن الصورة التي إليها كتب العقيدة والفقه كانت عاملاً رئيسياً من عوامل توليد أزمة المسلم المعاصر النفسية، لذلك من أجل تجاوز هذه الأزمة لابد من إعادة عرض العقيدة والفقه بالصورة التي تعيد إغناء المسلم ملاحظتين العوامل التي أدت إلى هذا الإفقار.

القسم الثاني



صور من حالات النفس المسلمة

الفصل الخامس

كيف تمتلك الصحة النفسية ؟

الإنسان ذو طبيعة مزدوجة فهو مكون من قبضة طين ومن نفخة روح، قال تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ (ص،71-72)، ولقد اهتم الدين الإسلامي بالجانبين: الطين والروح، أي: الجسد والنفس، أما الجسد فإن معالمه أوضح، وعناصره محددة لذلك فإن التعامل معه أسهل، وقد وردت عدة آيات وأحاديث تحدّد كيفية التعامل معه منها قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾ (الأعراف،31)، وقول الرسول ﷺ: "ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه فإن كان لابد فاعل فثلث لطعامه، وثلث لمائه، وثلث لهوائه"، وجاءت أوامر الوضوء والاغتسال كشروط لأداء الصلاة لكنها تحقق -في الوقت ذاته- هدفاً دنيوياً آخر هو تنظيف الجسد والمحافظة على سلامته، كما جاءت سنن الفطرة التي تشمل الختان والاستحداد وتقليم الأظافر وإعفاء اللحية التي ذكرتها كتب السنة، لتزيد الحياة جمالاً وطهارة

ونظافة، ولا نريد أن نفصل في مجال الجسد لأنه ليس مجال بحثنا الآن، لكن لابدّ من الإشارة البسيطة إليه، وإلى كيفية التعامل معه، لأن هذه الصورة من التعامل تؤثر في الصحة النفسية للمسلم.

أما الروح فهو جانب أعقد وأغمض في الإنسان لذلك قال تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ (الإسراء،85)، هذا عن حقيقة الروح وماهيتها، أما جانب دور الروح ووظائفها فذلك أوضح، فقد وردت عدة ألفاظ تدور في الإطار نفسه تشكل منظومة متكاملة مع الروح وهي ألفاظ (النفس، القلب، العقل، الفؤاد)، ويوجّه جميعها الجانب غير المحسوس من الإنسان وهو الجانب الأهم من مثل الأمور النفسية والعاطفية: كالحب، والرجاء، والخوف، والتعظيم، والثقة، والتوكل إلخ...، ومن مثل الأمور التفكيرية: كالتذكر، والفهم، والتعميم، والتحليل، والتركيب إلخ...

ومما يشير إلى أهمية النفس وقوع القسم بها فقد قال تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ (الشمس،7-10)، لأن الله لا يقسم إلا بما هو كبير وعظيم وشريف ومهم.

وبيّن لنا القرآن الكريم أن النفس تمرّ بثلاث حالات:

الأولى: الأمر بالسوء، فقال تعالى: ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾ (يوسف، 53)، وهي الحالة التي تأمر النفس فيها صاحبها بارتكاب المعاصي والمنكرات، والوقوع في القبائح، وتنهاه عن الطاعات والمروءات، وتستجيب لدواعي الأهواء والشهوات، وتخضع لنزغات الشيطان وإغراءته، وهي الحالة الأدنى.

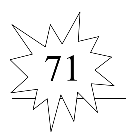
الثانية: لوم الذات ومحاسبتها، فقال تعالى: ﴿**وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾ (القيامة، 2)، وهي الحالة التي تلوم النفس فيها صاحبها على فعل الخير وفعل الشر، وقد وضّح ابن عباس ﷺ ذلك فقال: "هي التي تحاسب صاحبها على فعل الخير: لماذا لم أستزد منه؟ وعلى فعل الشر: لماذا وقعت فيه؟"، وهي حالة متقدمة على الحالة التي سبقتها.

الثالثة: اطمئنان النفس: قال تعالى: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ (الفجر، 27-30)، وهي الحالة التي اطمأنت فيها النفس أن الله – تعالى– حق، وإلى أن الرسول ﷺ حق ومبعوث لهداية العالمين، وإلى

أن القرآن الكريم حق، فعملت بتعاليم الإسلام، وأيقنت باليوم الآخر، واستسلمت لقضاء الله وقدره إلخ...، وهي الحالة الأعلى.

ومن الواضح أن هناك تدرجاً بين الحالات الثلاث، وأن النفس لا تنتقل من حالة إلى ما هو أعلى منها إلا بعد كثير من الطاعات والعبادات والمجاهدات والقربات من صلاة وصيام وذكر وصدقة إلخ...

وقد حدثنا القرآن الكريم والسنة المشرفة كثيراً عن النفس البشرية، وبيّن لنا معالمها، وقدّم تفاصيل دقيقة عنها من أجل أن نحسن التعامل معها، ومن المتيقن أن هذا التشريح للنفس البشرية سبق الاهتمام الغربي بتكوين (علم النفس)، والذي بنى (فرويد) قسماً كبيراً منه على دراسة حالات مرضية لبعض الأشخاص، وتوصل إلى تصور غير صحيح للنفس البشرية، حيث اعتبر أن الجنس -وحده- هو الطاقة المحركة للإنسان، واعتبر أن كل علاقة للولد بأمه هي علاقة جنسية من خلال "عقدة أوديب"، واعتبر -كذلك- كل علاقة للبنت بأبيها هي علاقة جنسية من خلال "عقدة ألكترا".



تلك بعض الآراء التي توصّل لها الغرب عن النفس البشرية عند أبرز عالم عندهم هو (فرويد)، وهي آراء شاذة ومبالغ فيها وغير دقيقة، لذلك جاءت معالجات (فرويد) لهذه النفس البشرية خاطئة وتتلخص في إطلاق الإباحية الجنسية للفرد من أجل عدم الوقوع في الكبت الجنسي، ناسياً أن العفة لا تعني كبتاً بل تعني ضبطاً للطاقة الجنسية وهو في مقدور الإنسان، ولاشك أن الخطأ في المعالجة أمر طبيعي طالما أن هناك خطأ في التصور.

والآن بعد هذا الوصف السريع لنموذج خاطئ في تصوره للنفس البشرية ومعالجته لها، ما معالمها حسب الطرح الإسلامي؟

تتكوّن النفس البشرية حسب الطرح الإسلامي من الطاقات التالية:

أوّلاً: طاقة الحب:

طاقة الحب عميقة في الكيان الإنساني، فقد بيّن الله لنا أن هذه الطاقة تتجه إلى حب الله فقال تعالى: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ (المائدة، ربيع ثان جمادى أول)، وقال تعالى أيضاً : ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ**

كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ﴾ (البقرة،165)، وتتجه إلى الشهوات فقال تعالى: **﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾** (آل عمران،14)، ومما تجدر الإشارة إليه أن الدين الإسلامي أباح للمسلم أن يحب الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والتجارة والمال والمساكن، لكنه طلب منه أن يكون حبه لله ورسوله أكثر من هذه المحبوبات فقال تعالى: **﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾** (التوبة،24).

ثانياً: طاقة التعظيم والخضوع:

الإنسان مفطور على تعظيم شيء أو أشياء -وبالتالي- الخضوع لها، والذي يعظمه الإنسان يخضع له، وكل شيء يخضع له لابد من أن يكون عظيماً عنده، وأول شيء مفطور على تعظيمه هو الله -تعالى- وحده، لذلك دعا الله -سبحانه وتعالى- الرسول في أوائل القرآن

الـــذي تــــربى عليـــه إلى تعظـــيم الله وتكبـــيره فقـــال تعـــالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر، ١-٣)، والتديّن هـو تعظـيم الله -تعـالى- وتقديسـه، وتنـزيهه عـن كـل شـبيه أو مثيـل وتوحيـده وهـو الـذي يولـد عليـه المولـود كمـا قـال الرسـول ﷺ: "كـل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه".

ثالثاً: طاقة الخوف والرجاء:

الإنسان مفطور على الخوف والرجاء، لابد من أن يخاف لذلك قـال تعـالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَـانَ خُلِـقَ هَلُوعـاً . إِذَا مَسَّـهُ الشَّـرُّ جَزُوعـاً . وَإِذَا مَسَّـهُ الْخَيْـرُ مَنُوعـاً﴾ (المعـارج، ١٩-٢١)، لـذلك طلـب القـرآن مـن المسـلم أن يوجّـه خوفـه[1] إلى مقـام الله وعـذاب الله فقـال تعـالى:

[1] ينتقد بعض الكتاب الدعاة عندما يتحدثون عن رجاء الجنة وخوف النار، فيقولون للدعاة: لا تخوفوا الناس، وفي الحقيقة لا يخوّف الدعاة الناس، لأن الناس واقعون في الخوف وهذه فطرة، لكن الدعاة يوجهون خوفهم إلى أمر حقيقي وهي النار بدلاً من أن يخافوا أموراً وهمية مثل الخوف على الصحة والمال والولد والسيارة إلخ... فإن ما سيحدث للإنسان في هذه الأمور مقدّر ومكتوب قبل أن تخلق السماوات والأرض، وأي خوف لن يؤثر فيما هو مُقدّر، ويمكن أن نقرب الموضوع بمثال عن أمر فطري آخر وهي شهوة النساء، ←

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (النازعات، شوّال ربيع ثان – محرّم ربيع ثان)، وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن، جمادى ثان ربيع ثان)، وطلب القرآن الكريم من المسلم كذلك أن يوجّه رجاءه إلى الله وجنته فقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ (الكهف، 110)، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر، 9).

والآن بعد هذا التوضيح لخريطة النفس الإنسانية كيف تمتلك – أخي المسلم– الصحة النفسية؟ تمتلك –أخي المسلم– الصحة النفسية إذا سارت كل طاقة في مجراها السليم، فطاقة الحب يجب أن تتجه إلى حب الله –تعالى– لأنه هو الذي أنعم عليك بنعمة الإسلام والإيمان والصحة والولد والمال إلخ... ويجب أن تتجه إلى ترجيح كفة حب الله

فأنت عندما تحدث شخصاً عن النساء لا تكون قد ولدت عنده هذه الشهوة فهي موجودة عنده وهو مفطور عليها، فإما أن تحدثه حديثاً إيجابياً في كيفية توجيه هذه الشهوة إلى مسارات صحية وسليمة، وإما أن تحدثه حديثاً سلبياً يثير شهوته ويعود بالضرر عليه وعلى غيره.

على كل محبوبات الدنيا بمعنى أن تحكّم شرع الله في حب الأموال والتجارة والعشيرة والزوج والولد والوالد والأخ، فتحلّ ما أحل الله في هذا الحب، وتحرّم ما حرّم الله، فتكسب المال عن طريق البيع وتبتعد عن الربا، وتقيم العلاقة مع الأنثى من خلال ميثاق الزواج وليس عن طريق المخادنة والسفاح والزنا، وتجعل علاقتك مع العشيرة من خلال الإيمان بالله وليس من خلال العصبية الجاهلية، ولا أن توالي الوالد والإخوان إن استحبوا الكفر على الإيمان، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ**﴾ (التوبة،23).

أما طاقة التعظيم والخضوع فيجب أن تتجه إلى تعظيم الله والخضوع له، بمعنى أن تعظم كلام الله وأوامره ونواهيه وحلاله وحرامه وأنبياءه وبيوته إلخ... وأن تخضع له فتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج إلى الكعبة إلخ...

أما طاقة الخوف والرجاء فيجب أن تتجه إلى الخوف من الله وإلى رجاء الله، بمعنى أن تخاف مقام الله وناره التي وقودها الناس والحجارة، وأن شررها كالقصر، وأنها تسأل هل من مزيد، وأنها تتميز من الغيظ، وأن الكافر تمنى من شدة عذابها ألا يكون قد استلم كتابه،

ولا عرف حسابه، وأنه هلك قبل ذلك، ويتحسر حيث لم يعد يفيده ماله ولا سلطانه، وأن الكافرين يلفح وجوههم رياح السموم الحارة، وأنهم يستظلون بظل لا بارد ولا كريم إلخ... وأن ترجو عطاء الله غير المحدود وكرمه الذي لا ينتهي، وعفوه، ومغفرته، وجنته التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفيها الحدائق والأعناب، والكواعب الأتراب، وفيها القول السلام إلخ...، لا أن ترجو المخلوقين الضعفاء المحتاجين من أمثالك.

الفصل السادس

كيف تكون إيجابياً فاعلاً مؤثراً ؟

المسلم إيجابي وفاعل ومؤثر، وقد تأتّى ذلك عن طريق غنى النفس الذي يملكه، قد بيّن الرسول ﷺ ذلك فقال: "ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس" (متفق عليه)، وقال الرسول ﷺ: "سبق درهم مائة ألف درهم" (رواه النسائي والجامع الصغير) فالدرهم الذي سبق كان أحد درهمين في حين أن المائة ألف درهم كانت جزءاً من ملايين الدراهم، وهذا الغنى النفسي هو الذي جعل من يملك درهمين أكثر كرماً من الذي يملك الملايين، وهذه الشخصية الإيجابية الفاعلة المؤثرة هي التي تواجدت في تاريخنا الماضي، فكانت ثمرة ذلك الأوقاف التي شغلت ثلث ثروة العالم الإسلامي، وكانت الانتصارات التي حفظت كيان الأمة، والتي تحقّقت بفضل التضحيات التي قدّمها أبناء هذه الأمة من دمائهم وأموالهم.

ولقد ذكر توينبي في دراسة له عن أفول الحضارات، فبيّن أن الحضارة تسقط عندما يخبو العطاء من الطبقة العليا في المجتمع، ويتحكّم الشحّ والبخل في هذه الطبقة، وبيّن مصداق هذه النظرة على

عـدد مـن الحضـارات، وكـان أوّلهـا سـقوط الامبراطوريـة الرومانيـة، وإن استمرار عطاء الطبقة العليا من مجتمعنا الإسلامي هو الذي مكّن أمتنا أن تستمر لأكثر من ألف عام، وإن تحقّق هذه الصفة مرة ثانية شرط أساسي في عودة الفاعلية إلى أمتنا على أرض الواقع المعاصر. والسؤال الآن: كيف يتولّد الغنى النفسي الذي يُولّد بدوره الإيجابية والفاعلية والتأثير عند المسلم؟ يتولّد ذلك من الإيمان بالله، ومن الإيمان بمحمد رسول الله ﷺ، ومن تحقيق أركان الإيمان والإسلام، وهذا ما سنوضّحه في السطور التالية.

أولاً: دور الإيمان بالله تعالى في البناء النفسي للمسلم:

لقد حدّثنا القرآن الكريم والحديث الشريف كثيراً عن الله تعالى، فأخبرنا أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وأنه يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض، وبيّن الزمن الذي يهبط فيه الأمر، فقال تعالى: ﴿**اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ. يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾ (السجدة،4-5)، وأخبرنا أنه خلق آدم من طين وأسجد الملائكة له فقال تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً**

مِن طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (ص،71-72)، وأخبرنا في آيات أخرى أنه خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور، وأنه خلق الإنسان وقضى الآجال، وأنه يعلم السرّ والجهر، ويعلم ما نكسب، فقال تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾** (الأنعام،1-3). عندما يؤمن المسلم بأن الله خلق السماوات والأرض والعرش والإنسان والظلمات والنور فإنه يعظّم الله تعالى.

وعندما يؤمن المسلم أن الله خلق الأرض ذلولاً من أجل الناس، وفصّل الليل والنهار من أجل أن يحسبوا أيامهم، ومن أجل أن يعملوا في النهار، ويسكنوا في الليل، وسخّر المخلوقات جميعاً لهم، وخلق الأنعام ليأكلوا منها ويركبوها إلخ... يجعله كل هذا يتّجه بالحب إلى الله.

وعندما يؤمن المسلم أن الله هو الخالق لهذه الآيات العظيمة: السماوات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر, والإنسان، وغيرها كثير، وهو تعالى المسيّر لها الحافظ له، يجعله ذلك يثق بالله تعالى.

وعندما يؤمن المسلم أن الله مالك السماوات والأرض، وبيده تعالى خزائنها، وأنه تعالى كريم غني يجيب دعوة الداعي إذا دعاه يجعله ذلك يرجو الله تعالى.

وعندما يؤمن المسلم أن الله تعالى أهلك المكذّبين، وأنزل عليهم العذاب في الدنيا، وأنه أعدّ لهم عذاباً أشدّ وأنكى في الآخرة يجعله ذلك يخاف الله تعالى.

ثانياً: دور الرسول ﷺ في البناء النفسي للمسلم:

لقد كان للرسول ﷺ دور عظيم في بناء المسلم النفسي، وذلك ناتج من اتصافه ﷺ بأحسن الأخلاق وأعلى الصفات، وأفضل الشمائل، فقد وصفه تعالى بأنه على خلق عظيم فقال تعالى: ﴿**ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجراً غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ (القلم،1-4). ووصفه كذلك بأنه رؤوف رحيم فقال تعالى: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾ (التوبة،128). ووصفه بالبعد عن غلظة القلب فقال تعالى: ﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو**

كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ (آل عمران،159).

كما بيّن الله تعالى في عدّة مواضع من القرآن الكريم أنه رحمة للبشرية، وأنه ﷺ النذير والبشير والسراج المنير، فقال تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ (الأنبياء،107)، ﴿**يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً**﴾ (الأحزاب،45-46).

إن صفات الرسول ﷺ السابقة تترك آثارها في البناء النفسي للمسلم بالصورة التالية:

1- تعظيم المسلم للنبي محمد ﷺ لأنه رسول الله الذي حمل إليه رسالة الله تعالى التي لا تقدر بثمن.

2- حب المسلم للرسول ﷺ لحسن أخلاقه وعظيم شمائله.

3- حرص المسلم على الاقتداء بالرسول ﷺ والتأسي به.

4- رجاء دخول الجنة باتباع سنته وتنفيذ أوامره.

5- خوف خسارة الأجر نتيجة الابتعاد عن سنة الرسول ﷺ.

ثالثاً: دور أركان الإيمان وأركان الإسلام في البناء النفسي للمسلم:

ثم يأتي دور الإيمان بأركان الإيمان، كالإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر في تنمية البناء النفسي للمسلم وإغنائه، ويأتي دور أركان الإسلام من إقامة للصلاة وإخراج للزكاة وصوم لرمضان والحجّ إلى البيت الحرام أيضاً في استمرارية الشحن والاغتناء النفسي ونحن سنوضّح بمثالين من كل الأركان السابقة من أجل عدم الإطالة على القارئ العزيز، وسيكونان: الإيمان بالملائكة، وركن إقامة الصلاة.

أ - دور الإيمان بالملائكة في البناء النفسي للمسلم:

حدّثنا القرآن الكريم والحديث الشريف عن الملائكة الحديث الكثير، فأخبرنا أنها مخلوقات نورانية لا تعصي الله تعالى، وتفعل ما تؤمر، وأنها تسبّح الله ولا تَفْتُر عن ذلك، وأن منها من يحمل العرش، ومن يقف على أبواب جهنّم، ومن يقبض الأرواح، ومن ينزل بوحي الله كجبريل عليه السلام، ومن ينفخ في الصور يوم القيامة كاسرافيل عليه السلام، ومن يكتب الحسنات إلخ... والسؤال المحدّد الذي تهمّنا الإجابة عليه هو: كيف يبني الإيمان بالملائكة تأْليه الله تعالى في ذات المسلم؟

الخلق دليل قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته وخبرته إلخ...، فعندما يعلم المسلم أن الله تعالى قد خلق مخلوقات من نور تحيط به تسمعه وتراه، وهي عظيمة في خلقها، وفي قدرتها، وفي المهام التي تقوم بها يولّد ذلك تعظيم الله في قلبه. وعندما يعلم المسلم ويؤمن ويوقن أن الله تعالى سخّر بعض الملائكة لحفظه، يقول تعالى: ﴿**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ**﴾ (الرعد،11)، ويقول تعالى: ﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ**﴾ (الأنعام،61)، وأنه سخّر تعالى بعضهم للصلاة عليه، ولإخراجه من الظلمات إلى النور، يقول تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ (الأحزاب،43)، وأنه تعالى سخّر بعضهم الآخر للاستغفار له، يقول تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ**﴾ (غافر،7)، فعندما يعلم كل هذا يتولّد في نفسه حمد الله وشكره على هذه النعم التي لا تُقدّر بثمن، وينمو بالتالي جانبا التعظيم والحب في قلبه.

ويبني الإيمان بالملائكة تعظيم الله تعالى والخوف منه عندما يعلم أن الله تعالى سخّرها لمعاقبة الكافرين عند الموت، يقول تعالى: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾ (الأنفال،50)، ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ**﴾ (الأنعام،93).

ب- دور إقامة الصلاة في البناء النفسي للمسلم:

ورد الأمر بالصلاة منذ ابتداء الدعوة فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً . نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً . إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً . إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءاً وَأَقْوَمُ قِيلاً**﴾ (المزمل،1-6). وقد بشّر الله تعالى الخاشعين فيها بالفلاح، فقال تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾ (المؤمنون،1-2)، وبشّرهم كذلك بالجنة يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ (الذاريات،15-18)، وحثّ

القـرآن المسـلم أن يصـبر عليهـا وأن يـأمر أهلـه بهـا، فقـال تعـالى: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى**﴾ (طه،132)، وبيّن الله تعالى أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ**﴾ (العنكبوت،45).

إن الصلاة مدرسة كاملة: يتطهّر فيها المسلم استعداداً للصلاة، ويتّجه إلى الكعبة أثناء أدائها، ويقف خائفاً قانتاً لله تعالى، ثم يركع ويسجد، ثم يختم صلاته داعياً ومستغفراً إلخ... كيف تبني الصلاة الجانب النفسي عند المسلم؟

تبني الصلاة تعظيم الله تعالى في ذاته لأنه يقتطع من وقته وجهده قدرين يسأل فيهما ربه أن يعطيه وأن يعافيه وأن يعينه، وتبني الخضوع لله تعالى لأنه يمتثل أمره تعالى في الركوع والسجود وفي التطهّر بالصورة التي أمر بها وفي الوقت الذي أراده تعالى، وتبني حبّه تعالى لأنه يحمده تعالى في صلاته على نعمه الكثيرة، وتبني رجاءه تعالى لأنه يسأله استمرار النعم التي أنعم عليه بها، ويسأله تعالى المزيد منها، كما يدعوه تعالى إن يُنعم عليه بالجنة، ويوجّه خوفه إليه تعالى من أن يسلبه النعم التي أنعم عليه بها أو من أن يعذبه في النار التي أعدّها.

بعد أن بيّنا كيفيّة تحقيق الاغتناء النفسي عند المسلم الذي هو الأصل في الإيجابية والفاعلية والتأثير سنحاول أن نبيّن آلية تحقّق هذه الإيجابية والفاعلية والتأثير في ثلاث دوائر:

1- دائرة الخير والشرّ.

2- دائرة العطاء.

3- دائرة الشجاعة الأدبية.

1- دائرة الخير والشرّ:

تتطلب صفة الإيجابية والفاعلية والتأثير من المسلم أن يقف إلى جانب الخير والخيّرين، وأن يبتعد عن الشر والشرّيرين، فكيف يحقّق المسلم ذلك؟ يدعو الشر المسلم إلى الوقوع فيه وارتكابه، ويزيّن الشيطان المعاصي له من سرقة وزنا وفجور وخيانة إلخ...، وتدعو النفس الأمّارة بالسوء ذلك المسلم إلى الوقوع في تلك المعاصي، لكن المسلم يتغلّب على دعوة الشرّ تلك بما يملك من غنى نفسي يتمثّل في تعظيم الله، من خلال تعظيم أمره في فعل الحلال واجتناب الحرام، ويتمثّل في الخوف من عقوبته في حال ارتكابه لتلك المعاصي، ويتمثّل في اليقين بعلم الله ومراقبته إلخ...، إن هذا الغنى النفسي هو الذي يبعده عن الشرور والمعاصي، ليس هذا فحسب، بل يدفعه ذلك الغنى

النفسي إلى الحرص على الخير والطهر والاستقامة والوقوف إلى جانب الخيّرين مهما كانت العقبات، ومهما كانت التكلفة المطلوبة، لأنه يجد في ذلك حلاوة ما بعده حلاوة، إنها حلاوة مجاهدة الباطل، وثمرة الإيمان الذي يعمر قلب المسلم، وثمرة رجاء الفوز في الجنة.

2- دائرة العطاء:

تتطلّب الحياة من الإنسان أن يكون كريماً معطاءً لكي يكون إيجابيّاً فاعلاً مؤثراً فيما حوله، ولكن عندما يتطلّب الموقف كرماً أو تصدّقاً في مال أو علم، أو سعياً في حاجة ملهوف ما، أو إغاثةً لمنكوب، أو تنفيساً لكرب مكروب إلخ... يظهر جانب الشحّ والتقتير في النفس الإنسانية، ويدعو هذا الجانب الإنسان إلى البخل وعدم العطاء، ويزيّن الشيطان ذلك من الخارج، لكن المسلم يتغلّب على هذه العوامل بما يملك من تعظيم لله، وخضوع له، وحب للآخرة إلخ...، فلو أخذنا جانب الدعوة إلى التصدّق بالمال، فالمسلم ينفق مما آتاه الله لأنه لا يعظّم المال بل يعظّم الله الذي أعطاه المال، ولا يخضع لنفسه التي تأمر بالتقتير بل يخضع لله الذي أمره بالإنفاق، وهو لا يعتقد بضياع المال الذي أنفقه بل يعتقد بأنه سيلقاه في آخرته يوم لا ينفع مال ولا

بنون، وهو يثق بأن الله سيُعوّضه خيراً مما أنفقه إلخ... وقس على ذلك بقية الأمور.

3- دائرة الشجاعة والأدبية:

تتطلّب الحياة من الإنسان أن يمتلك الشجاعة الأدبية التي تدفعه إلى قول الحق والصدع به، حتى يكون فاعلاً ومؤثّراً وإيجابياً، وتتولّد الشجاعة الأدبية عند المسلم من الغنى النفسي الذي يمتلكه والذي يتمثّل في تعظيم الله والخضوع له والخوف منه، فهو عندما يواجه موقفاً يتطلّب جرأةً وكلمة حق فيتنازعه هاجسان: الأول: يطلب منه أن يقول الحق إرضاءً لله، وخوفاً من عقابه إن لم يصدع بذلك الحق، وراجياً منه العون في مواجهة الرافضين لهذا الحق الذي سيصدع به: بأن يليّن قلوبهم، ويفتح بصيرتهم، ويهديهم إلى سواء السبيل إلخ... الثاني: الخوف من غضب الناس، وانفضاضهم من حوله، وتأثّر مصالحه الدنيوية إلخ... لكن المسلم يُغلّب الهاجس الأول بسبب الغنى النفسي الذي يملأ قلبه وعقله.

إن الامتلاء النفسي الذي يولّده الإيمان بكل شعبه وفروعه هو الأصل في الغنى النفسي، ثم تأتي أركان الإيمان وأركان الإسلام لتستمر

في شحن قلب المسلم ونفسه بكل صنوفه: التعظيم لله، والخضوع له، والخوف من ناره ورجاء جنّته، وتوجيه الحب له سبحانه وتعالى، يأتي هذا الغنى النفسي وهذا الشحن ليكونا الأصل في دفع المسلم إلى الإيجابية والفاعلية والتأثير، لذلك نستطيع أن نؤكّد بأنه عندما تكون هناك نفس غنية بالإيمان سيكون هناك إيجابية وفاعلية وتأثير في مختلف دوائر الحياة.

الفصل السابع

كيف تحقق السعادة ؟

يظنّ كثير من الناس أن السعادة تتحقّق بامتلاك المال والقصور والحدائق والبساتين والسيارات، أو تتحقّق بالشهرة وذيوع الصيت، أو تتحقّق بالجاه والارتقاء في السلّم الاجتماعي، أو تتحقّق بالرحلات والسياحة في الأرض وأكل أطايب الطعام ولبس فاخر الثياب إلخ... صحيح أن جانباً من السرور والانبساط والسعادة يتحقّق عندما ينال الإنسان بعض الأشياء المذكورة سابقاً أو كلّها، لأن الجديد يولّد اللّذة كما قال الشاعر:

لكل جديد لذّةٌ غير أنني وجدت جديد الموت غير لَذيذِ

لكن هذه السعادة لا تدوم عند تحقّق الأشياء السابقة للإنسان، لأنه كلما أصاب شيئاً منها طلبت نفسه المزيد، فإذا امتلك قصراً طلبت نفسه قصرين، وإذا حقّق شهرة تطلّعت نفسه إلى شهرة أكثر، وإذا حقّق جاهاً معيّناً تاقت نفسه إلى ما هو أعلى إلخ...، وهكذا في كل المجالات السابقة، فعندما يصل المرء إلى أفق معين فيظنّ أنه

سيطمئن قلبه، وتتحقّق سعادته لكنه يجد أن شيئاً من ذلك لم يتحقّق، بل مازالت نفسه تطلب المزيد، وهو في هذا الحال كمن يشرب ماءً مالحاً يظنّ أنه سيحقّق الارتواء كلما شرب شيئاً منه، لكن النتيجة أنه يزداد عطشاً، وقد عبّر الرسول ﷺ عن حالة الإنسان تلك، فقال ﷺ: "لو كان لابن آدم واد من ذهب أحب أن له واديا آخر. ولن يملأ فاه إلا التراب. والله يتوب على من تاب" (رواه مسلم)، لذلك نجد أن كثيراً من الأشخاص انتحروا بعد أن امتلكوا الأموال الكثيرة والقصور الفارهة، وبلغوا المنزلة العالية من الشهرة والجاه، وما ذلك إلا لأن نفوسهم لم تجد ما سعت إليه من السعادة بل حصلت على سراب.

وبالإضافة إلى عدم تحقّق السعادة نجد أن مثل هذا الإنسان الذي حصل على الأموال والقصور والسيارات والشهرة والجاه قد أصبح عبداً لهذه الشهوات، عندما يحصل عليها لا تتحقّق سعادته فحسب، بل يصبح همّه الحصول على المزيد ولا يشبع مهما حصل منها، وعندما يفقدها يحسّ بألم شديد لفقدها، وقد صوّر القرآن هذه الحالة في آيتين، فقال تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً**﴾ (الفرقان،43)، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ**

وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (الجاثية،23). ترسم الآيتان السابقتان صورة محزنة لنموذج إنساني، ومثال بشري انتهى به المطاف أن يؤلّه أهواءه وشهواته، ويصبح عبداً منقاداً لها، ليس هذا فحسب، فهو حينما يسقط في هذا المستنقع يسقط عن علم ويضل عن علم، فهو يعرف أن له معبوداً هو الله يجب أن يطيعه ويلتزم بأوامره، لكنه لا يفعل ذلك بل يطيع شهواته وأهواءه في ارتكاب الحرام واجتناب الحلال، وتكون نتيجة هذا التأليه للشهوات أن يختم الله على قلبه وسمعه وبصره، فبدلاً من أن تكون هذه الجوارح منافذ للهدى والسعادة تصبح منافذ للشقاوة والتعاسة.

وقد فصّل الرسول ﷺ في حديث له أنواع الأشخاص الذين تستعبدهم شهواتهم فقال: " تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتُقِش، إذا أعطي رَضِيَ، وإذا مُنِع سخط" (رواه ابن ماجه)، لقد بيّن الرسول ﷺ في الحديث السابق أن هناك عبداً للمال، وأن هناك عبداً للطعام، وأن هناك عبداً للباس، ودعا ﷺ عليهم بالتعاسة والانتكاس وأن لا تنزع من أجسادهم الشوكة التي تشوكهم، وبيّن السبب في عبوديّتهم أن رضاهم وسخطهم مرتبطان بتحقيق شهواتهم مع أن

المسلم يجب أن يكون رضاه وسخطه مرتبطين برضى الله وسخطه، بمعنى أن يرضى ما رضيه الله، ويسخط لما سخط الله عليه، ويحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله تعالى، وهذا هو الذي استكمل الإيمان، قال الرسول ﷺ: "من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان" (رواه أبو داود)، وقال ﷺ: " أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله" (رواه أحمد).

إن هذا النموذج الذي تحدّث عنه الآيتان السابقتان والحديث السابق، والذي ألّه شهواته، وعبد أهواءه، وخضع لنزواته، نموذج موجود في كل زمان ومكان، لذلك اتجهت البشرية إلى حل مشكلة ذلك النموذج، والتخلّص من استعباد الشهوات بأحد حلّين:

الأول: تعذيب الجسد لقتل هذه الشهوات بأساليب من مثل حمل الأثقال، وعدم الاغتسال، والعيش في غرفة مظلمة، والامتناع عن الزواج، والانقطاع عن العباد، والعيش في الكهوف إلخ...، وقد لجأت كثير من الأديان كالهندوسية والبوذية والمسيحية إلى هذا التعذيب لطاقات الجسد وحواسّه متوهّمة بأنها ستحقّق الخلاص الروحي لهذا الإنسان نتيجة هذا التعذيب، وقد رفض الإسلام كل هذه الأساليب والطرق فجاء في رواية

عن أنس بن مالك ﷺ يقول: "جاء ثلاث رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله أني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني" (رواه البخاري)، وجاء في حديث آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "بينا النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم، فسأل عنه فقالوا: أبو اسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلّم، ويصوم، فقال النبي ﷺ: مروه فليتكلّم وليستظلّ وليقعد وليتمّ صومه" (رواه البخاري)، وجاء في حديث آخر عن أنس ﷺ أنه قال: "دخل النبي ﷺ، فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: ما هذا الحبل. قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت. فقال النبي ﷺ: حلوه، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد" (متفق عليه).

إذن رفض الإسلام هذا الأسلوب في حل مشكلة استعباد الشهوات للإنسان عن طريق تعذيب الجسد، والسبب في رفض

الإسلام لذلك الحل هو أن الله لم يخلق هذه الشهوات والحواس عبثاً، إنما خلقها لتكون دافعاً للإنسان من أجل إعمار الأرض.

الثاني: تعبيد الإنسان ذاته لله، فهذا وضع أشرف وأكرم لإنسانيته وآدميته، وبذلك ينتقل من عالم الضرورة وضغط الشهوات إلى عالم الحرية، فيصبح سيداً لنفسه بدلاً من أن تكون شهواته سيداً له تقوده وتستعبده وتذلّه، والسؤال الآن: لماذا يجب عليه أن يعبّد ذاته لله تعالى؟ يجب على الإنسان أن يعبّد ذاته لله تعالى لأنه مخلوق ضعيف متعجّل مفطور على التعلّق بالشهوات، قال تعالى: ﴿**وَخُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفاً**﴾ (النساء،28)، وقال تعالى: ﴿**خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ**﴾ (الأنبياء،37)، وقال تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾ (آل عمران،14) إلخ... لذلك فهو إما أن يخضع للشهوات أو يخضع لله، فليس من شك بأن الأسلم له والأصوب أن يخضع لله.

والسؤال هو: كيف يحقّق المسلم تعبيد ذاته لله تعالى؟ لا يعني تعبيد المسلم ذاته لله بأن يمتنع عن قضاء الشهوات والاستمتاع بها، بل

أباح الله قضاء الشهوات والأهواء والاستمتاع بها ليس هذا فحسب، بل هو مأجور على قضائها ويتّضح ذلك في حديث الرسول ﷺ والذي رواه أبو ذرّ ﷺ حيث قال: "وفي بضع أحدكم صدقة. قالوا: يا رسول الله ! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال:أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر" (رواه مسلم). إذن يتحقّق تعبيد المسلم ذاته لله تعالى بأن يخضّع شهواته وأهواءه لأوامر الله ونواهيه، فالله جدير بأن يخضع له الإنسان وأن يلتزم بأوامره، ويبتعد عن نواهيه لأنه خالق هذه الشهوات، وهو المالك لكل أسباب إروائها وإشباعها من مال وطعام وشراب إلخ...، وهو المنعم المتفضّل بكل خير، والقادر على إبعاد كل شرّ، وهو الرحمن الرحيم الذي يمدّ كل مخلوق بأسباب وجوده واستمرار حياته إلخ...

والقلب في حقيقة الأمر فقير إلى الله، لذلك قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ (فاطر،15)، فهو لا يصلح، ولا يلتذّ، ولا يسكن إلا بعبادة ربه وحبّه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذّ به لم يطمئن ولم يسكن إلا إذا عبد ربه، لأنه فيه فقراً ذاتياً إلى ربه، لذلك قال تعالى: ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ**

تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد،28)، ومن الواضح أن الآية عندما قدّمت الجار والمجرور (بذكر) فمعنى ذلك أنها قصرت اطمئنان القلوب على ذكر الله، وإن اطمئنان القلب لن يحدث بالحصول على المال أو الطعام أو الشهوة أو الجاه إلخ...، بل يحدث الاطمئنان بذكر الله من صلاة ودعاء واستغفار وتلاوة قرآن إلخ...، وإن لذة الركون إلى الله لا يمكن أن تعادلها لذة أو فرح أو سكون آخر، وقد بيّن الرسول ﷺ في بعض أحاديثه أن لهذا الذكر حلاوة، وأعطى علامات لهذه الحلاوة فقال ﷺ: "ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار" (رواه البخاري)، وقال ﷺ: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبيّاً" (رواه مسلم).

عندما يُعبّد الإنسان ذاته لله يكون قد انسجم مع كل معطيات الكون، فجميع المخلوقات العاقلة تعبد الله تعالى، وتسجد له، قال تعالى: **﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾** (الرعد،15)، وكذلك جميع المخلوقات غير العاقلة تسجد له، قال تعالى: **﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**

مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (النحل،49)، وجميع المخلوقات تسبّح بحمد الله، قال تعالى: **﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾** (الإسراء،44)، وكذلك استسلمت السماء والأرض لله طائعتين لله، فقال تعالى: **﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾** (فصّلت،11)، والإنسان عندما يعبّد ذاته لله تعالى يكون قد انسجم مع الحقيقة التي خلق الله الجن والإنس لها وهي عبادة الله، قال تعالى: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾** (الذاريات،56)، لذلك دعا الأنبياء الناس أول ما دعوهم إلى عبادة الله وحده لأن في ذلك سعادتهم، فالله ليس محتاجاً لعبادة أحد، لذلك قال الله: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾** (النحل،36)، وكذلك دعا هود عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده فقال تعالى: **﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾** (الأعراف،65). وبيّن الله أن جميع الرسل الذين سبقوا محمداً دعوا إلى عبادة الله وحده، قال تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾** (الأنبياء،25)، وكذلك دعا نوح عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده، قال تعالى:

﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ (الأعراف،59)، وكذلك انتهج صالح عليه السلام نهج أخويه السابقين نوح وهود فدعا قومه إلى الحقائق السابقة وبالألفاظ نفسها، قال تعالى: ﴿**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ**﴾ (هود،61)، وكذلك دعا شعيب عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده فقال تعالى: ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ**﴾ (الأعراف،85) إلخ... وهكذا جاء جميع الأنبياء والرسل بالدعوة إلى هذا الأصل الكبير، ومن الطبيعي أن يأتي رسولنا محمد ﷺ داعياً إلى هذه الحقيقة فقال تعالى: ﴿**هَـذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**﴾ (ابراهيم،52).

لاحظنا أن جميع الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله إلى البشرية دون استثناء، بدأوا دعوتهم بالدعوة إلى عبادة الله وحده، فلماذا كانت الدعوة بهذه الصورة؟ لقد جاءت الدعوة إلى عبادة الله وحده بداية جميع الدعوات لأنها الأصل الذي يحقّق السعادة للإنسان في الدنيا، والنجاة في الآخرة، ولا شيء غيرها يحقّق السعادة.

في النهاية نقول: ظنّ كثير أن السعادة تتحقّق بنيل الشهوات والاستمتاع بها، لكن تبيّن أن تحقيق الشهوات لا يحقّق السعادة, لأن الإنسان عندما يحقّق هذه الشهوات لا يكتفي بل تتطلّع نفسه إلى المزيد، ويكون حاله كمن يشرب ماءً مالحاً لا يتوصّل إلى الارتواء بل يزداد عطشاً، وتكون النتيجة استعباد هذه الشهوات للإنسان، وأمام هذه المعضلة لجأت بعض الأديان والمذاهب إلى تعذيب الجسد من أجل تحقيق الخلاص للإنسان، لكن الإسلام رفض هذا الحلّ، واعتبر أن السعادة تتحقّق بتعبيد الإنسان ذاته لله تعالى، لأنه عندما يفعل هذا يكون قد انسجم مع كل مخلوقات الكون من جهة، ويكون قد لبّى حاجة قلبه الذي فيه فقر ذاتي إلى ربّه من جهة ثانية، ويكون قد حقّق حرّيته الصحيحة من جهة ثالثة.

الفصل الثامن

كيف عالج الإسلام القلق ؟

يوصف عصرنا بأنه عصر القلق، وهناك أسباب متعددة لهذا القلق ولدتها الحضارة الحديثة وأبرزها التعقيدات الحياتية التي أفرزتها الآلات والتكنولوجيا والمصانع الحديثة، وقد زادت الحربان العالميتان اللتان وقعتا في النصف الأول من القرن العشرين من حجم القلق الذي تعانيه البشرية، ولا شك أنّ الإحساس بالقلق إحساس قديم رافق الإنسان منذ وجوده على ظهر الأرض، لكن حجمه ازداد في العصر الحاضر، والقلق في أجلى صوره هو الخوف من المستقبل والقادم المجهول، فكيف عالج الإسلام القلق عند الإنسان؟

اعترف الإسلام منذ البداية بأنّ الإنسان مفطور على الخوف فقال سبحانه وتعالى: ﴿**إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلوعاً . إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزوعاً . وإذا مَسَّهُ الخيرُ مَنوعاً**﴾ (المعارج، رمضان محرم – محرم صفر)، وقد أوضحت آيات متعددة خوف بعض الأنبياء في بعض المواقف فذكر القرآن الكريم خوف موسى وهارون -عليهما السلام- من مواجهة فرعون فقال سبحانه وتعالى: ﴿**إنّنا نَخافُ أَيْ يَفْرُطَ علينا أو أنْ يَطْغَى**﴾ (طه، جمادى أول ربيع ثان)، وذكر

القرآن في موضع آخر أنّ موسى عليه السلام يخاف من قتل فرعون فقال سبحانه وتعالى: ﴿**ولهم عَلَيَّ ذنبٌ فأخافُ أَيْ يَقْتُلونِ**﴾ (الشعراء، ربيع الثاني محرم)، وقد وضحت آيات أخرى خوف إبراهيم عليه السلام من الملائكة الذين زاروه في صورة بشر ولم تصل أيديهم إلى الطعام الذي قدمه لهم فقال سبحانه وتعالى: ﴿**ولقد جاءَ تْ رُسُلُنا إبراهيمَ بالبُشْرى قالوا سلاماً قال سلامٌ فما لَبِثَ أنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنيذٍ . فلمّا رَأى أيدِيَهُم لا تَصِلُ إليهِ نَكِرَهُم وأَوْجَسَ مِنهم خِيفَةً قالوا لا تَخَفْ إنّا أُرْسِلْنا إلى قومِ لوطٍ**﴾ (هود، رمضان جمادى الثاني- شوال رجب)، وقد تحدثت آيات أخرى عن الواقعة ذاتها فقال سبحانه وتعالى: ﴿**هل أَتاكَ حديثُ ضيفِ إبراهيمَ المُكْرَمينَ . إذْ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلامٌ قومٌ مُنْكَرونَ . فراغَ إلى أهلِهِ فجاءَ بِعِجْلٍ سَمينٍ . فقَرَّبَهُ إليهِم قال ألاَ تأْكلونَ . فأَوْجَسَ منهُم خِيفَةً قالوا لا تَخَفْ وبَشَّروهُ بِغُلامٍ عَليمٍ**﴾ (الذاريات، ربيع الثاني صفر- شعبان صفر)، وبعدما اعترف الإسلام بفطرية الخوف عند الإنسان، وأنّ كل إنسان لا محالة خائف، عالج الخوف بخطوتين مترافقتين:

الأولى: استحضار واستشعار معية الله سبحانه وتعالى:

ويمكن أن نمثل على ذلك بواقعة أمر الله لموسى وهارون -عليهما السلام- أن يذهبا إلى فرعون لدعوته ومخاطبته في شأن بني

إسرائيل، وإجابتهما بأنهما يخافان من بطشه وعدوانه، لكنّ الله أخبرهما بأنّ عليهما ألاّ يخافا من بطش فرعون وألاّ يخافا من تلك المواجهة لأنه -أي الله- معهما يسمع ويرى فقال سبحانه وتعالى: ﴿**قالا ربنا إنّنا نخافُ أَن يَفْرُطَ علينا أو أَن يَطْغى . قال لا تَخافا إنّني معكُما أَسْمَعُ وأَرَى**﴾ (طه، ٤٥-٤٦)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿**وإذ نادى ربُّكَ موسى أنِ ائْتِ القومَ الظالمينَ . قومَ فرعونَ ألاَ يَتَّقونَ . قال ربِّي إنّي أَخافُ أن يُكَذِّبونِ. ويَضيقُ صَدْري ولا يَنْطَلِقُ لِساني فأَرْسِلْ إلى هارونَ . ولهم عَلَيَّ ذنبٌ فأخافُ أن يَقْتُلونِ . قال كلاّ فاذْهَبا بآياتِنا إنّا معكم مُسْتَمِعونَ**﴾ (الشعراء، ١٠-١٥)، وقد استوعب موسى عليه السلام الدرس في مواقف أخرى لذلك عندما خوّفه قومه من متابعة فرعون لهم وإدراكه لهم أخبرهم بأنه مطمئن وليس خائفاً لأنّ الله معه قال سبحانه وتعالى: ﴿**فلمّا تَراءى الجَمْعانِ قال أصحابُ موسى إنّا لمُدْرَكونَ . قال كَلاَّ إنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدينِ**﴾ (الشعراء، ٦١-٦٢).

الثانية: توجيه القلب إلى الخوف من نار الله سبحانه وتعالى:

طلب القرآن الكريم من المسلم أن يخاف نار الله وعذابه فقال سبحانه وتعالى: ﴿**وقال الله لا تَتَّخِذوا إلَهَيْنِ إثْنَيْنِ إنما هو إلهٌ واحدٌ فإيَّايَ فارْهَبونِ**﴾ (النحل، ٥١)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿**ولِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ**

جَنَّتانِ﴾ (الرحمن، جُمادى ثان ربيع ثان)، وقال سُبحانه وتعالى: ﴿**وأمّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ ونَهَى النفسَ عنِ الهَوَى . فإنَّ الجنّةَ هي المَأْوَى**﴾ (النازعات، شوّال ربيع ثان – مُحرّم ربيع ثان)، وقد وردت تفصيلات كثيرة في القرآن الكريم والسنة المشرفة عن الجنة والنار وعن صور النعيم والعذاب فقد جاء عن النار أنّ وقودها الناس والحجارة، وأنّ عليها ملائكة غلاظاً شداداً، وأنها تتميز من الغيظ، وأنها تسأل ربها المزيد من الكافرين، وأنّ شررها كالقصر، وأنّ الكافر يتمنى من شدة عذابها أن يكون تراباً وألاّ يكون قد استلم كتابه ولا عرف حسابه ويتحسر حيث لم يفده ماله ولا سلطانه، وأنّ الكافرين تلفح وجوههم رياح السموم الحارة وأنهم يستظلون بظل لا بارد ولا كريم إلخ... وقد جاء عن الجنة أنّ فيها حدائق وأعناباً، وأنّ قطوفها مذللة، وأنّ فيها سدراً مخضوداً وطلحاً منضوداً وظلاً ممدوداً، وأنّ فيها حوراً عيناً، وأنّ فيها شراباً طهوراً، وأنّ فيها حريراً وسندساً، وأنّ فيها أنهاراً من لبن وعسل وخمر، وأنّ فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر إلخ... والمقصود من كل ذلك أن يوجّه المسلم قلبه إلى الخوف من أمر يقيني وهي نار الله تعالى ورجاء أمر يقيني وهي جنة الله تعالى. ومن جهة ثانية على المسلم أن يطرد من قلبه خوفاً موهوماً يوسوس به الشيطان ويثير به مخاوفه على نفسه وماله

وولده ومستقبله وصحته ومتاعه إلخ... قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**إنما ذلكم الشيطانُ يُخَـوِّفُ أولِيـاءَ هُ فـلا تَخـافوهم وخـافونِ إن كنـتم مـؤمِنينَ**﴾ (آل عمران، جمادى أول رجب محرم)، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً: ﴿**الشيطانُ يعِدُكم الفقرَ ويأمُرُكم بالفحشاءِ واللهُ يعِدُكم مغفرَةً منه وفضلاً**﴾ (البقرة، شعبان جمادى ثان صفر)، لأنّ ما يصيب المسلم لا يأتي اعتباطاً إنما يكون مقدراً من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قبل أن يخلق السماوات والأرض، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**ما أصابَ مِن مصيبةٍ في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتابٍ مِن قبلِ أن نَبْرَأَها إنّ ذلك على اللهِ يسيرٌ**﴾ (الحديد، صفر صفر)، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**قل لن يُصيبَنا إلا ما كتبَ اللهُ لنا هو مولانا وعلى اللهِ فليتوكّلِ المؤمنونَ**﴾ (التوبة، محرم جمادى أول)، وفي النتيجة عندما يزرع المسلم في قلبه خوفاً يقينياً من النار وينزع منه خوفاً موهوماً بسبب وسوسة الشيطان يكون قد ولّد الأمن الذي يطرد القلق.

وقد وصل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى النتيجة السابقة عينها عندما حاور قومه في مشكلتي التوحيد والخوف فحاورهم في مشكلة التوحيد أوّلاً وأثبت لهم خطأ عبادتهم الكواكب ومن ضمنها القمر والشمس لأنها تأفل في حين أنّ الرب يجب أن يكون غير آفل، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**فلمّا جَنَّ عليه الليلُ رأى كوكباً قال هذا ربي فلمّا أَفَلَ قال لا أُحبُّ الآفلين . فلمّا رأى القمرَ بازِغاً قال هذا ربي فلمّا أفل قال لئن لم يهدني ربي**

لأكوننّ من القومِ الضالينَ . فلمّا رأى الشمسَ بازِغةً قال هذا ربي هذا أكبرُ فلمّا أَفَلَتْ قال يا قومِ إني بريءٌ مما تُشركونَ . إني وجّهت وجهِيَ للذي فطرَ السمواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا مِنَ المشركينَ﴾ (الأنعام، جُمادَىٰثَانِ رَجَب – رَمَضَان رَجَب). بعد أن انتهى إبراهيم عليه السلام من إقامة الحجة على قومه بشأن عبادتهم الكواكب، وإعلان تبرئه من ذلك الشرك وتوجهه إلى عبادة الله الخالق للسموات والأرض شرع في إقامة الحجة عليهم ومحاورتهم بخصوص الخوف، وهذا يعني أهمية موضوع الخوف، فأعلن عدم خوفه من آلهتهم المدعاة، ثم تساءل مستنكراً أن يخاف آلهتهم المدعاة، مستنكراً في الوقت نفسه أنهم لا يخافون الله مع اقترافهم ذنب الشرك العظيم، ثم تساءل في نهاية الاستنكار عن الفريق الأحق بالأمن أهو فريق الموحدين أم فريق المشركين؟ قال سبحانه وتعالى: ﴿**وحاجّهُ قومُهُ قال أَتُحاجُّونِّي في اللهِ وقد هدانِ ولا أخافُ ما تُشركونَ بهِ إلاّ أن يشاءَ ربّي شيئاً وَسِعَ ربّي كلَّ شيءٍ علماً أفلا تتذكّرونَ . وكيف أخافُ ما أَشْرَكْتُم ولا تَخافونَ أنّكُم أَشْرَكْتُم باللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً فأَيُّ الفَريقَيْنِ أَحَقُّ بالأَمْنِ إن كنتم تعلمونَ﴾** (الأنعام، شَوَّال شَعْبَان – مُحَرَّم شَعْبَان)، ثم جاء الجواب على تساؤل إبراهيم عليه السلام عن الفريق الأحق بالأمن في الآية التالية، قال سبحانه وتعالى: ﴿**الذين آمنوا ولَمْ يَلْبِسوا إيمانَهُم بظُلْمٍ أولئك لهم الأَمْنُ وهم مُهْتَدونَ﴾** (الأنعام، صَفَر شَعْبَان)، لقد ذكرت كتب التفاسير

أنه لما نزلت الآية السابقة شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله أينا لم يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قاله العبد الصالح: "يا بني لا تشرك بالله إنّ الشرك لظلم عظيم" أي هو الشرك. (رواه أحمد)، ويصبح معنى الآية الجواب أنّ الأمن مختص ومقتصر على الذين يؤمنون بالله ولا يخلطون إيمانهم بشرك وذلك بسبب تقديم الجار والمجرور "لهم" وهو متعلق بالخبر المحذوف- على المبتدأ "الأمن" وهذه المعاني التي انتهى إليها حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه تلتقي مع المعاني التي استخلصناها من مواجهة موسى عليه السلام مع فرعون، وهي أنه للتغلب على الخوف والقلق وللحصول على الأمن لابد من أمرين: إيمان بالله والتخلص من كل أنواع الشرك، وهذا يعني أن يملأ المسلم قلبه بتعظيم الله والخوف من ناره ورجاء جنته واستشعار معيته سبحانه وتعالى من جهة، ويعني أيضاً التغلب على الخوف الموهوم الذي يفرزه الشيطان وأنواع الشرك المختلفة من جهة ثانية.

والأرجح أنّ الأمن عرف طريقه إلى قلوب المسلمين على مدار التاريخ الماضي، ومما يؤكد ذلك أنّ الدكتور عز الدين اسماعيل علّل عدم معرفة المسلمين المسرح في تاريخهم مع أنهم ترجموا معظم التراث اليوناني في الفلسفة والطب والمنطق إلخ... علّل عدم معرفة المسرح تلك بنفي

وجود أية إشكالية لهم مع القدر لأنّ المسرح يزدهر في المجتمعات التي تكون لديها إشكالية مع القدر. ولا شك أنّ حل مشكلة الإنسان مع القدر تأتي نتيجة طبيعة لوجود الأمن والاطمئنان في داخل بنائه النفسي.

بينا فيما سبق كيفية التغلّب على القلق من خلال وقائع من حياة رسولين كريمين هما: موسى وإبراهيم عليهما السلام، وصدق رسول الله ﷺ حيث قال في حديث قدسي: "قال الله ﷻ: وعزتي وجلالي إني لا أجمع على عبدي خوفين، ولا أمنين، من خافني في الدنيا أمنته في الآخرة، ومن أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة" (رواه أبو نعيم في "الحلية" وابن المبارك في "الزهد" والألباني في "الصحيحة").

الفصل التاسع

كيف تتغلب على الحزن ؟

الحزن هو التأثر والانفعال لخسارة شيء أو فقد عزيز أو وقوع مصيبة، وقد يأخذ الحزن حيّزاً كبيراً من حياة العبد، ويستولي عليه، فيترك آثاراً نفسية وعقلية خطيرة تؤدّي إلى مرض العبد حيناً، وإلى اضطراب نفسيته حيناً آخر، وعدم اتزانه العقلي حيناً ثالثاً، وقد تتفاقم الأمور وتزداد سوءاً فتؤدّي إلى شلله أو جنونه أو هلاكه. ويمكن أن نمثّل للحزن بالحزن الذي أصاب النبيّ يعقوب عليه السلام لفراق ابنه يوسف عليه السلام، فقد أثّر عليه الحزن حتى أفقده بصره عليه السلام، كما حذّره أبناؤه من استمرار تذكّره يوسف عليه السلام، فإن ذلك سيؤدّي به إلى الهلاك فقالوا له: ﴿**قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ**﴾ (يوسف،85)، والسؤال الآن: كيف يمكن أن يتغلّب العبد على الحزن؟ يمكن أن يتغلّب المسلم على الحزن بعدّة وسائل:

الأولى: اعتبار الدنيا دار ابتلاء:

على المسلم أن يعتبر الدنيا دار ابتلاء ودار اختبار كما قال الله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾ (الملك،2)، وعليه أن يتوقّع مختلف أنواع الابتلاءات من جوع وخوف وهلاك الزرع والماشية والحيوان، والخسارة في التجارة والأموال، وفقد الولد والوالد والقريب والحبيب فقد قال تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾ (البقرة،155)، وقد بيّن الله تعالى في مطلع سورة العنكبوت أن الفتنة مقصودة لتمحيص العباد، وقد جرت هذه السنّة مع السابقين وسيتحقّق مع اللاحقين، قال تعالى: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ (العنكبوت،2-3)، كما بيّن الله -تعالى- أنه ابتلى الناس بالشرّ والخير ليختبرهم فقال تعالى: ﴿**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ (الأنبياء،35)، كما بيّن الله الهدف من خلق الزينة على الأرض هو اختبار الناس فقال تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ (الكهف،7)، كما ذكر القرآن الكريم أن الابتلاء سينتهي إلى معرفة

المجاهدين والصابرين فقال تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ**﴾ (محمد،31). وقد حدّثنا القرآن الكريم عن ابتلاءات خاصة يتعرّض لها المؤمن، فبيّن الله لنا أنه رفع –تعالى– بعض الناس فوق بعضهم الآخر من أجل اختبارهم، فقال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (الأنعام،165)، وبيّن الله لنا أن سليمان عليه السلام اعتبر أن جلب الرجل الذي عنده علم من الكتاب لعرش بلقيس هو اختبار له: أيشكر أم يكفر؟ فقال تعالى: ﴿**فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾ (النمل،40)، إن التعامل مع الدنيا على أنها دار اختبار وتمحيص وابتلاء هو الخطوة الأولى في التعامل الصحيح مع الحياة، وهي الخطوة التي تجعل العبد المسلم لا يهلع عند وقوع أيّة مصيبة أو كارثة بل يستقبلها على أنها أمر متوقّع.

الثانية: اعتبار الجنة الدار المرجوّة:

فصّل القرآن الكريم الحديث عن نعيم الجنّة ليعتبرها المسلم هدفه ورجاءه ومبتغاه، فذكر أن فيها خير الطعام والشراب والفواكه والظلّ واللباس والسكن والأرائك والفراش والقطوف والأكواب إلخ...، فبيّن الله -تعالى- لنا النعيم الذي يطاله أصحاب اليمين فقال تعالى: ﴿**وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ . وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ . وَمَاء مَّسْكُوبٍ . وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ . وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ . إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً . عُرُباً أَتْرَاباً . لأَصْحَابِ الْيَمِينِ . ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ**﴾ (الواقعة،27-40)، كما بيّن الله -تعالى- لنا النعيم الذي يحصل عليه المتقون فقال تعالى: ﴿**إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً . حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً . وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً . وَكَأْساً دِهَاقاً . لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا كِذَّاباً . جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَاباً**﴾ (النبأ،31-36)، وذكر الحديث الشريف أن الجنّة فيها نعيم غير مسبوق فقال الرسول ﷺ: "قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فاقرؤوا إن شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين)" (متفق عليه).

وأجرى القرآن الكريم المقارنات المختلفة بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة، ووضّح أن متاع الدنيا هو متاع زائل، مشوب بالتنغيصات، محدود اللذّة، قصير المدّة، في حين أن متاع الآخرة متاع خالد، لا تشوبه أيّة تنغيصات، يختلف عن متاع الدنيا في نوعه وعمقه، وقد جاءت كل التفصيلات في المقارنة بين متاع الآخرة ومتاع الدنيا ليجعل العبد لا يأسف على خسارة متاع الدنيا أو فقده في حالة المصيبة أو الخسارة أو الابتلاء، وأن ما ينتظره في الآخرة متاع أطيب وألذّ وأدوم فقال تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ (الحديد،20)، بيّن الله تعالى في الآية السابقة أن الحياة الدنيا بكل ما فيها من زينة وأموال وأولاد إنما هي عَرَض زائل كمثل النبات إذ يكون أخضر ثم يصبح هشيماً وحطاماً، وأن الآخرة فيها المغفرة والرضوان من الله أو العذاب الشديد، وقال تعالى: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً**﴾ (الكهف،45)، ضرب الله للناس –في الآية السابقة–

مثلاً عن الحياة الدنيا ومتاعها القليل في الزمن القصير بالنبات الذي يخضرّ ثم يصبح حطاماً.

إن الحديث المفصّل عن نعيم الجنّة وإجراء المقارنات بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة المقصود من الحديث على هذين المستويين في القرآن الكريم هو التهوين من شأن أيّة خسارة لنعيم الدنيا من جهة، وجعل المسلم يوجّه قلبه ورجاءه إلى نعيم الآخرة باستمرار من جهة ثانية.

الثالثة: الصبر على البلاء:

حثّ الإسلام العبد أن يصبر على البلاء، لأن صبره هو الذي يكسبه الأجر، وأمر الله الرسول أن يصبر كما صبر الرسل السابقون فقال تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ (الأحقاف،35)، وقال تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ**﴾ (ق،39)، وبيّن الله لمحمد ﷺ أن الرسل السابقين صبروا عندما كُذّبوا لكي يقتدي بهم ولكي يكونوا سلوى له فقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ**

مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأنعام،34)، كما امتدح أيوب عندما قال عنه: **﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾** (ص،44)، وقد بيّن القرآن أن أحد أقسام البرّ هو الصبر في الشدّة والابتلاءات فقال تعالى: **﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾** (البقرة،177)، كما وضّح القرآن الكريم أن الصابرين يوفّون أجورهم بغير حساب يوم القيامة فقال تعالى: **﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** (الزُّمَر،10)، وبيّن القرآن في آية أخرى أن الصابرين هم الفائزون فقال تعالى: **﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾** (المؤمنون،111).

وقد بيّن الحديث الشريف أن أمر المؤمن كله خير، إن أصابه الخير شكر الله عليه فازداد أجره، وإن أصابته ضراء صبر، قال الرسول ﷺ: "عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا

له" (رواه مسلم). وليس من شكّ بأن المصائب وما ينتج عنها من حزن تكون مدعاة لتكفير الذنوب كما قال الرسول ﷺ: "ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه" (رواه البخاري).

الرابعة: اللجوء إلى الله وطلب العون:

عندما يحدث الحزن في القلب بسبب مصيبة أو ابتلاء معيّن فعلى المسلم أن يلجأ إلى الله ويدعوه ويكثر من ذكره، وقد علّمنا القرآن والسنة أدعية معيّنة في حالات معيّنة، فعلّمنا القرآن الترجيع في حال وفاة حبيب أو قريب فقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ**﴾ (البقرة،156)، وقال الرسول ﷺ: "ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرا منها إلا أجره الله في مصيبته وأخلف له خيرا منها" (رواه مسلم). وذكرت أم سلمة عند وفاة زوجها وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي، واخلف لي خيرا منها إلا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيرا منها" قالت: فلما توفي أبو سلمة

قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيرا منه رسول الله ﷺ. (رواه مسلم).

إن سيكولوجية مناجاة الله وطلب العون منه للتغلّب على الحزن تقوم على أن الإنسان في حالة الحزن يميل إلى بثّ شكواه إلى أي أحد ليخفّف عنه عبء الحزن الذي أثقل كاهله، وليس من شكّ بأن مناجاة الله –سبحانه– وهو السميع القوي القادر الخبير اللطيف الودود الرحيم تحقّق الطمأنينة للعبد، وتجعله يتغلّب على حزنه، ويتجاوز آثاره، ويستمرّ في تحقيق دوره وحياته الإيجابية، وبخاصة أن العبد يعلم أن هذا الربّ يسمعه الآن، ويعلم حاله، ويمكن أن يحقّق له طلبه، فإن لم يكن الآن فسيكون بعد حين، أو سيعطيه الأجر في الآخرة على ما أصابه، لذلك بيّن النبيّ يعقوب عليه السلام أنه يلجأ إلى الله في شكواه لأنه يعلم نتيجة إيمانه بالله أموراً لا تعلمه الخلائق عن الله كاللطف والقدرة والرحمة والحكمة والودّ إلخ... فقال تعالى: ﴿**قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ (يوسف،86).

الخامسة: الاستسلام لقضاء الله وقدره:

إن الإيمان بركن القضاء والقدر هو أحد الأمور المطلوبة من المسلم كي يستكمل إيمانه بالله، وضح ذلك الحديث الذي سأل فيه جبريل الرسول ﷺ عن الإيمان فقال ﷺ: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره" (رواه مسلم).

ومما يهوّن على المسلم مصيبته أو خسارته أو ابتلاءه أن يوقن بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وبأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن كل ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ قبل أن تخلق السماوات والأرض، قال رسول الله ﷺ في الحديث مخاطباً ابن عبّاس رضي الله عنه: "يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده اتجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف" (رواه الترمذي وأحمد)، وقال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ (الحديد،22)، وقال تعالى: ﴿**قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ (التوبة،51). وقد اعتبر العلماء أن

أعلى مراتب الاستسلام لقضاء الله عدم الشكوى لغير الله، واعتبروا الأنين نوعاً من الشكوى لغير الله لذلك لم يئن أحمد بن حنبل في مرض موته حتى لا تعتبر شكوى لغير الله.

ليس من شكّ بأن اتباع المسلم الخطوات السابقة تجعله يتغلّب على أيّ حزن يواجهه، وتبدأ هذه الخطوات باعتبار الدنيا دار ابتلاء واختبار فعليه أن يكون مستعدّاً لهذا الاختبار، مالكاً لأدواته من عقيدة وإيمان وعلم وعمل وتطهير للقلب ووعي لمسالك الشيطان إلخ...، وتتمثّل الخطوة الثانية بأن يعتبر الجنّة هي الدار التي يرجوها، وتتحقّق الخطوة الثالثة بأن يصبر على أي بلاء يصيبه ولا يجزع فينال الأجر الوفير والمكانة العالية في الآخرة، وتتطلّب الخطوة الرابعة بأن يلجأ إلى الله في شكواه، كما تدعوه الخطوة الخامسة أن يستسلم لقضاء الله وقدره.

فهرس

مقدمة جمادى أول

الباب الأول: صور من بناء النفس المسلمة محرم

محرم

الفصل الأول: دور البناء النفسي للصحابي في إنجاح تطبيق الشريعة في المدينة .... محرم

ربيع أول

الفصل الثاني: دور القرآن الكريم والسنة المشرفة في البناء النفسي للمسلم.. صفر صفر

الفصل الثالث: دور شهر رمضان في البناء النفسي للمسلم .... ربيع أول

ربيع ثان

الفصل الرابع: أزمة المسلم المعاصر النفسية: أبعاد وحقائق .... ربيع ثان

صفر

الباب الثاني: صور من حالات النفس المسلمة جمادى ثان

جمادى أول

الفصل الخامس: كيف تمتلك الصحة النفسية ؟ .... جمادى ثان

رجب

الفصل السادس: كيف تكون إيجابياً فاعلاً مؤثراً ؟ .... رجب

رجب

الفصل السابع: كيف تحقق السعادة ؟ .... رمضان

شوال
الفصل الثامن: كيف عالج الإسلام القلق؟ .... محرم
شوال
محرم
الفصل التاسع: كيف تتغلب على الحزن ؟ .... محرم
شوال
رمضان
فهرس .... محرم
صفر
محرم

من إصدارات المؤلف

- الفكر الإسلامي المعاصر : دراسة وتقويم 1969م
- النكسة في بعدها الحضاري 1973م
- في مجال العقيدة : نقد وعرض 1986م
- جذور أزمة المسلم المعاصر : الجانب النفسي 1993م
- الجماعة في الإسلام : المشروعية والإطار 1995م
- التغيير في العالم الإسلامي: أزمة موضوعية أم ذاتية؟ 1996م
- أبو الأعلى المودودي فكره ومنهجه في التغيير : دراسة وتقويم 1996م
- الأمة الإسلامية بين القرآن والتاريخ : دراسة وتحليل 1999م
- إشكالية النهضة بين الفكر القومي العربي والصحوة الإسلامية 2003م
- القضية الفلسطينية: الواقع والآفاق 2005م